أحمد رجب شلتوت

حالة شجن

رواية قصيرة

الرواية الفائزة بجائزة إحسان عبدالقدوس عام ٢٠٠٨

الكتاب: حالة شجن (رواية قصيرة)

الكاتب: أحمد رجب شلتوت

الطبعة: ٢٠٢٣



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة -
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

شلتوت ، أحمد رجب
حالة شجن/ أحمد رجب شلتوت
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٩٩ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٩ – ٧١٣ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٧٤٩ / ٢٠٢٣

حالة شجن



الإهداء

إلى

فجر أَثِقِ فى طلوعه رغم سطوة العتمة

أرى بلداً غريباً

لم أشاهد مثله منفى،

ولا وطنـا

ولا أعلم كيف اتخذته أمة سكنا

"أحمد عبد المعطي حجازي"

حالة شجن

(أ)

كان الجو غائماً فى البيت، فالأم – تؤيدها الجدة بقوة – توبخ الجميع لتقصيرهم فى حق البنات.

أردت أن أعترض، أن أقول لها أن البنات لم يعدن بناتا، أصبحن أمهات منذ سنوات عدة، لكن لزمت الصمت، فالأم – أمهن – تصر على أن لهن حقاً علينا، ولابد أن نؤديه مهما كانت قدراتنا. والجدة – مثل الأم – ضجرة متبرمة، لكنها تحافظ على هدوئها، حتى حينما تقسو وتوجه لنا اللوم:

– أنتم ثلاثة رجال، وهن أيضاً ثلاثة، فهل كثير على الرجل منكم أن يتحمل مواسم أخت واحدة، لم أطق صبرا، حاولت مجادلتها، قلت أنهن أصبحن أمهات، وهذا ليس أول أو ثاني شهر رمضان يأتي بعد زواج أصغرهن.

ترد فى حسم:

– هذه عادة ولن نقطعها، ولتعلم يا كبير إخوتك أن قطع العادة مجلبة للنحس.

– لكن المواسم لا تنتهى، فى كل شهر هجري موسم، والمواسم تتلاحق سراعا.

مُحَمَّد يلتقط الخيط، لا يضيع الفرصة، يحاول أن يحصى المواسم:

– يوم ٢٧ رجب، ١٥ثم شعبان، و بعده شهر رمضان فى أوله ياميش ومكسرات وفى منتصفه الكنافة والمشبك، وبعده عيد الفطر ولابد من العيدية وقبلها إرسال الكعك ولوازمه، هذا غير مواسم القصب والغطاس مرة، ثم البطيخ مرة، وهكذا حتى نعيد الدورة.

:تقاطعه الأم

– أعرف ما تريد قوله، ولست بحاجة لأن تذكرني، أضف أيضا لحم عيد الأضحى، وحلاوة المولد النبوي، و...

يحاول مُحَمَّد أن يتكلم لكنها لا تدع له الفرصة، تتهمنا:

– هذه عاداتنا وكل الناس يفعلون ذلك، أما كلامكم فهو حجج من رفع يده عن مسئوليات عائلته، لقد انشغلت يا بن بطني بنفسك وبزوجتك عنا.

يحاول مُحَمَّد أن يبعد كلامهما اللوام عنه، يشير باتجاه أخيه، قبل أن يواصل كلامه:

– زوجته ستلد خلال أيام، فمن أين له بتكلفة الولادة إن أنفق قروشه على الياميش

تغيظه الأم:

– اسكت خالص، الخلاصة إنك أنت وابنى الكبير جمال بتوع نسوانكم، والشهامة ليست بالعمر، بطني لم تحمل إلا غريبا. هو

أصغركم حقا لكنه أكثركم شهامة ومروءة.

تؤمن الجدة على كلامها ثم تختم بالدعاء:

– ربنا يرده سالماً

***

لكن غريبا لم يعد، ...

فاتت الساعات تلو الساعات على موعده ولم يعد، ...

مع فجر اليوم خرج – كما يفعل كل يوم – على الكتف يحمل الكرتونة ويغادر مصحوباً بدعوات الأم والجدة. ربما ترافقه الدعوات حتى باب المسجد، وبعد الصلاة يقصد وجه الرزاق الكريم.

قال وهو يغادر: كان اليوم متعبا:

.– السوق اليوم بعيد والكرتونة ثقيلة

***

بالأمس اشترى الكرتونة فارغة من غندورة بائع الفاكهة. دفع فيها جنيهين كاملين، فتحها فشممنا رائحة التفاح.

ساعدته فى إعداد بضاعته. فتح كرتونة الأكواب الزجاجية. وضعها إلى جوار جردل الماء. يغسل الأكواب ويجففها، ثم يناولها لي. أضع كل ستة أكواب فى كيس، أغلق الكيس جيداً وأناوله لزوجتي، فمهمتها رص الأكياس فى الكرتونة التي كانت للتفاح. مازالت الكرتونة تحتفظ ببعض الرائحة.

بعد أن ينتهي غريب من مهمته يقوم بإحصاء الأكواب المكسورة، ثم يزفر بأسى:

- دستة وربع خسارة.. خمسة عشر كوبا مكسورا في كرتونة واحدة .. كثير والله، نصف المكسب ضاع قبل أن أبيع شيئا.

سألني عن عدد الأكياس التي رصتها زوجتي، أبلغته، فراح يتمتم وهو يحسب التكلفة النهائية لكل نصف دستة قبل أن يحدد سعر البيع. ولما انتهى من الحساب أغلق الكرتونة، أحكم ربطها بالحبل، ثم صنع بالحبل يدا يرفع منها الكرتونة، نقلها إلى جوار الحائط، وقام لينام.

***

هذا ما يفعله غريب كل ليلة، وفي كل فجر يخرج حاملاً بضاعته ليعود مع العصر منهكاً. قد يبكر قليلاً أو يتأخر قليلاً، لكن لم يحدث قبل اليوم أن غربت الشمس قبل أن يعود.

***

(ب)

أعادت الأم صلاة المغرب مرتين، قالت إن الشيطان وخز قلبها وأقلقها على الغائب ليفسد صلاتها، الجدة أيضا، ولنفس السبب أكثرت من التمتمة عقب الصلاة، كانت تدعو بإلحاح لتدرأ خطرا لا نراه، لكن قلبها يشعر بدنوه.

والأب أخلف عادته اليومية، صلى المغرب ولم ينتظر بالمسجد حتى

صلاة العشاء، أسرع بالعودة، سمعته يسأل عن غريب قبل أن يخطو داخلا الدار، وسمعت الجدة تجيب بالدعاء:

– ربنا يجبر خاطره ويرده غانما سالما.

دلف الأب إلى الحجرة. كانت الأم تبكى. حاول طمأنتها، لكنه لم يفلح، فهو أيضاً قلق. يتشاغلان بالتليفزيون.

سألني إن كنت أعلم مكان سوق اليوم. أجبت بالنفي. أشعل سيجارة. شد نفساً عميقاً ثم رماها. أطلق الدخان وسعل.

داس السيجارة بحذائه وهو يغادر الحجرة، هتف بأعلى صوته منادياً على مُحَمَّد، عاد للحجرة وهو يفرك أصابعه.

جاء مُحَمَّد فأمره:

– شف لي أصحاب غريب.

– مررت ببيوتهم جميعا، سألتهم عنه، اليوم لم يره منهم أحد

– أما يعلم أحدهم أي سوق قصد اليوم ؟

– لا، لم يخبر أحداً بذلك.

– المشكلة أن أسواق يوم الأربعاء كثيرة

أضفت مؤكدا:

– فوق كثرتها هي أيضا متناثرة قبلي وبحرى.

راح مُحَمَّد يعدد أسماء الأماكن التي تشهد أسواقاً يوم الأربعاء، استبعد

أبى الزقازيق والمنصورة فغريب لم يذهب إليهما من قبل. أقصى مسافة قطعها كانت إلى أشمون.

قالت أمي أن قلبها يحدثها بأن أهل خطيبة غريب السابقة قد آذوه. ذكرتها بأنهم قوم مسالمون ولا يمكن أن يفكروا في الأذى، فضلا عن عدم حدوث شيئ يدعوهم للانتقام، فهم الذين فسخوا الخطبة وأنهوا العلاق، فلا مبرر إذن لأن يضمرون له شرا.

تبكى قائلة:

– قلبي عليك يا ولدي، غريب طوال عمره وبخته قليل، منذ مولده وهو غير محظوظ.

ينفث أبى غضبه فى التليفزيون. المتحدث منتفخ الوجنات يغيظه، يتهم غريبا بالتسول، يتحدث عن مثل الذين يمتهنون مهنته واصفاً إياها بالهامشية، وإنها أقرب إلى التسول منها إلى العمل، وراح يعدد أضرارها على الاقتصاد القومي لكن أبى لم يدعه يكمل ما بدأه، هتف فى مُحَمّد:

– اقفل على ابن الـ...... هذا.

ينفث دخان سيجارته بغيظ، ثم يكمل:

– تسول إيه وزفت إيه، يعني الشباب اللي مش لاقي شغل يفضل عاطل، والبيوت المفتوحة من هذه الأعمال تخرب. هذه الأعمال تخرب الاقتصاد القومي ولا تخربه سرقة أموال البنوك وتهريبها للخارج.

حاولت تهدئة الأب فلم يهدأ. أغلق مُحَمّد التليفزيون. ساد الصمت

لأقل من دقيقة ثم واصل الأب صراخه:

– تعليم واتعلم. دخل الجيش وخرج، وشغل مفيش، والسفر لم يعد سهلا، قولوا لى يعمل إيه؟ يا عالم حد يقول لي يعمل إيه؟.. يسرق يعني، ولا يموت؟ ولا يعمل إيه؟

تضاحك مُحَمَّد:

– اهدأ يا حاج، فالرجل لم يكن يقصد غريبا بكلامه

لم يرد الأب. مسح جبهته بكفيه، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، بصق إلى يساره وإلى يمينه ثم أشعل سيجارة أخرى. نفث دخانها باتجاه السقف. تابع فأراً يندس فى شق بالحائط. هبطت عيناه إلى التليفزيون المغلق. بسرعة صعد بهما إلى صورة جمال عبدالناصر المعلقة على الجدار. توقف عندها قليلاً ثم تجاوزها إلى صورته الشخصية. كان شاباً يرتدى الزى العسكري.

قال وهو ينفث دخان سيجارته:

– الصورة دى اتصورتها فى سبتمبر ٧٣، آخر يوم من آخر إجازة قبل الحرب. قبل أول سحور...

لم يستدع كعادته ذكرياته عن حربي الاستنزاف والعبور، لم يقرب السيجارة من شفتيه، ولم ينطق، فقط كان يرتجف في صمت، ولما انطفأت سيجارته أشعل غيرها.

ولم يطل صمت الأم التي عاودت اتهامها لأهل خطيبته السابقة.

***

(ت)

تعرف غريب على خطيبته السابقة فى أحد الأسواق. كانا يلتقيان كل يوم أربعاء. بعد شهور فاتح الأب برغبته فى الزواج منها. ظل يلح حتى لان الأب واقتنع بأن لا ضرر من زواجه بفتاة ليست من قريتنا. تذكر الأب صديقاً له من نفس قرية الفتاة. لم يره منذ خرجا من الجيش مع نهاية ١٩٧٧. قرر أن يزوره، ويسأله عن أهل الفتاة، ولن يعلن رأيه بالرفض أو الموافقة قبل ذلك.

يومها صحبني الأب إلى قليوب، ومنها أخذنا الميكروباص إلى القرية. ذكر اسم صديقه، سأل السائق عن البيت، فأنزلنا على رأس شارع، أشار باتجاه البيت:

– ثالث بيت إلى يمينك، بلكونته خضرا ومرسوم عليها جمل وسفينة.

قبيل الباب المغلق بنصف خطوة توقف أبي، حرص على ألا يكون في مواجهة الباب، نادى بصوت عال:

– يا حاج صالح. يا حاج صالح. قالها مرتين وقبل النطق بالثالثة خرج من عمق البيت صوت رفيع:

– من؟ ابتسم أبى مطمئنا إلى أن صديقه القديم لم يزل حيا، والصديق عاود السؤال:

– من بالباب؟

رد أبي :

– واحد يحبك

– حبايبي كثيرون فأيهم أنت؟

– صديق من أيام الجيش.

رأيت الصديق طويلاً جاحظ العينين، كان شاحباً ويزداد شحوبه كلما ضحك. ضحكا كثيراً هو وأبى وهما يتذكران الزملاء ونوادرهم، يستعيدان الحكايات بتفاصيلها الدقيقة، قد يختلفان حول اسم القائل أو الفاعل لكن يتفقان على الحكاية بتفاصيلها، ضحكا كثيرا وكأن عبوسهما السابق – بفرض أن صديق أبي يتجهم مثله كثيرا – كان بسبب ادخارهما الضحك لهذا اللقاء. لكن غادرتهما الضحكات وهما يترحمان على شهداء اللواء ٢٥ مدرع.

اكتشفت أن ذاكرتيهما ممتلئتان بأسماء وحكايات

الشهداء، ترددت كثيراً كلمات الحصار والسويس وجبل عتاقة. ولم ينه حديث الحرب إلا نقرات على الباب.

قال الرجل:

– أدخل يا جمال.

دخل شاب فى مثل سنى، قال أبيه ضاحكاً:

– له نفس اسمك، وربما نفس عمرك.

صافحنا الشاب ثم خرج لدقيقتين قبل أن يعود حاملاً طبلية. وضعها فى منتصف الحجرة، فرد فوقها صحيفة قديمة.

خرج مرات كثيرة وفى كل مرة يعود حاملاً طبقين. كل طبق بيد. ولما امتلأت الطبلية أحضر دورق الماء المثلوج وأغلق الباب.

***

تحدثا كثيرا في موضوعات شتى، ولم يقل أبي شيئا عن غريب وحكايته، فظننت أنه نسي الغرض الحقيقي من الزيارة، لكنه وهو يرشف الشاي فاجأني، وسأل صديقه عمن اختارهم غريب، تجشأ الصديق وهو يمتدحهم، تحدث عنهم كثيرا، الأب كان جنديا في الجيش، خرج بعد الحرب وفي ساقه أثر رصاصة أحدثت عرجا خفيفا، لم يؤثر كثيرا على رعايته لقراريطه القليلة، لكنه بعد أن كبر الأولاد وتعلموا لم يعد راغبا في الفلاحة، فباع قراريطه واشترى بثمنها ضعف عددها بالقرب من حافة الجبل، وهناك أقام مفحمة، ضحك عم صالح كثيرا، وهو يقول لأبي:

– غبار الفحم صحيح عكر وشه، لكن قلبه لسة أبيض.

بعد أن شربنا الشاي أصر الرجل على أن يصحبنا إليهم،

حاول أبى التريث والتأجيل حتى زيارة أخرى، لكن صديقه زجره مذكرا بأن خير البر عاجله.

***

(ث)

طالت فترة الخطبة لعام ونصف، ذلك كان مخالفا لما اتفق عليه أبي، الذي منح نفسه وغريب عاما واحدا في نهايته يتم الزفاف، مر العام وانتصف الذي يليه ولم ننه تشطيب الشقة، فضلا عما التزمنا به من جهاز العروس، لم يطق أهل الفتاة صبراً، لاموها لرفضها ابن عمها، كان رجلا فلم يعد من السعودية إلا بعد إن بنى بيتاً وادخر مالاً، وافتتح مشروعا، امتدخوه كثيرا وعابوا فى غريب، ولاموها، قالوا:

– رفضت لحمك وآثرت الصايع المفلس.

البنت بكت وطالبت غريبا بأن يفعل شيئاً، أهلها أمهلوه لشهرين إضافيين فقط، انتهيا فتوسط لديهم صديق أبي، منحونا شهرين آخرين وبعدهما ردوا الشبكة، حملها صديق أبي في زيارة مفاجئة، ونقل إلى أبي طلبهم بألا يتصل غريب بابنتهم.

يومها بكى غريب، ولامتني أمي، لم ترحمني:

– منك لله يا كبيري، يا خايب أنت السبب. أنت الذى خيبت شقيقك حين شجعته على الرجوع من السعودية.

***

كان غريب دائم الشكوى فى رسائله وتليفوناته من إذلال الكفيل له، بدا راغباً فى العودة لكنه كان يخشى اللوم. لم يستطع اتخاذ القرار، الناس سيلومونه ويشككون في رجولته، وهل يكون رجلا من يترك أكل عيشه ويلوذ بحضن أمه؟، قالوها عن سواه، فلن يجد من يرحمه، أراد أن يقول

أحدنا له عُد ليعود، فقلتها، لتنتهي حيرته وعذابه.

عاد ولم أستطع أن أجد له عملا، كما توهم هو دون أن أعده بما لا أملك، ولم يجد في النهاية – مثله كمثل أغلب شباب أبو النمرس – إلا كرتونة، يملأها ببضاعة رخيصة أو بمنتجات زجاجية ويحملها عقب كل فجر ليدور بها على الأسواق.

***

(ج)

أخبرني مُحَمَّد بأن جميع زملاء غريب توقعوا أن تكون الشرطة قبضت عليه، فالشرطة تقصد الأسواق، وكثيراً ما تقبض على الباعة الجائلين. خصوصا في مثل هذه المواسم، يستعدون لقدوم شهر رمضان بالتنكيد على مثل هؤلاء.

تركت أخي قاصداً هانى. كان صديقي قبل أن يصبح وكيلاً للنائب العام. آخر مرة زارني فيها كانت بعد زواجي بشهر، مر عليها عامان، يومها ظننته جاء مهنئاً لكنه جاء لغرض أخر. عرض على صفقة (هذه كلمته) تلاها

بالتأكيد على أن الشاب العصامي – كما كان يصفني دائما – الذى لم يرث، ولم يهاجر، ولم ينحرف، لابد له أن يستدين ليتم زواجه. أخبرني بمعرفته بأنى استدنت من أكثر من صديق لأستطيع إتمام زواجي. استاء لأنى لم ألجأ له، تكلم كثيرا عن واجب الصداقة وعن محبته لي، وفى النهاية أعاد

على أذني كلمة "صفقة" قبل أن يعرض مشروعه (وهذه أيضاً كلمته)، ذكرني بكوني معاق وبأن الدولة ترعى أمثالي وتعفيهم من جمارك السيارات المجهزة، قبل أن يذكر تفاصيل مشروعه، قال – ستشترى سيارة مجهزة وأدفع أنا ثمنها، ولا تنس أننى أستطيع إنهاء كافة الإجراءات بسرعة، وبمجرد أن تتسلم السيارة تتركها مقابل ألف جنيه مكسب. وحينما يحل الموعد القانوني تتنازل لي عنها (ضحك مستطردا) ألم أقل لك إنها صفقة، لكن لا تغضب منى ستوقع أولاً على إيصال أمانة بثمن السيارة، أنت رجل مؤمن والقرآن الكريم قال كما تعرف، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوه،

أردت أن أنهي كلامه فقلت:

– صدق الله العظيم.

رفضت الصفقة فألح وضاعف المبلغ، لم أتراجع فغادرني

غاضباً ومن يومها لم يزرني.

***

استمع هاني لي، وأبدى تعاطفه. شكرني لأنني تذكرته، معنى ذلك أني مازلت أعتبره صديقا، وهذا أسعده، وعد بأن يفعل شيئاً من أجل غريب. طالبني بأن لا أتعب نفسى في رحلة بحث لا طائل منها، وهو سيعمل اللازم، اتصالاته تكفيني مشقة البحث.

***

حكيت لمحمد فلم يصدقه، قال إنه كان يستطيع إنهاء المشكلة قبل أن

أغادره وبالفعل لن يكلفه الأمر غير مكالمة تليفونية. اتفقنا على أن نصبر حتى الفجر، لا نستطيع أن نفعل شيئا قبل الغد، وإن لم يعد غريب نخرج للبحث عنه، اتفقنا على أن يبحث عنه مُحَمَّد فى أسواق الوجه القبلي، بينما أقصد أنا أسواق الوجه البحري.

وافق الأب على الاقتراح، وطالبنا أنا ومُحَمَّد أن نتصل كل ساعة لنعلمه بنتائج البحث لكن الأم لم توافق، صرخت فينا ملتاعة:

– ألن تفعلوا شيئاً الليلة، وهل أحتمل حرقة قلبي حتى الصباح؟

(ح)

لم ينم أي منا ...

كانت زوجتى تبكى وتتمتم بالدعاء، بينما تشاغلت بإعادة رص الكتب فى المكتبة، أخرجت كتاب "الدرب الأخر" ذكرني به أستاذ الاقتصاد منتفخ الوجنات، الذى أغلقنا التليفزيون بسببه. وجدت ورقة من الكتاب مثنية.

(هل أوحت لي بحال أخي غريب حينما قرأت الكتاب لأول مرة؟)

فردت الورقة وقرأتها بصوت عال لتسمع زوجتي:

" ... مع امتلاء المدينة بالناس، والاستيلاء تدريجياً على المساحات الفضاء فيها لأغراض الإسكان غير الرسمي، بدأت أنشطة اقتصادية تأخذ مساراً مماثلاً فى تطورها. وكانت التجارة هي أحد هذه الأنشطة".

***

سألتني زوجتي فحكيت لها عن الكتاب، فقالت هل مؤلفه مصري، فقلت إن اسمه "هرناندو دى سوتو"، وهو من بلد بعيد اسمه بيرو، هو ليس مصريا، ولم يسبق له أن سمع بأبي النمرس وشبابها، وما يحملون من هموم وكراتين.

صمتت زوجتي وطفحت عيناها بالأسى، فواصلت القراءة:

" ... وكان هذا إيذاناً بميلاد التجارة غير الرسمية التي تجرى أساساً فى الشوارع حيث تعرف بالبيع المتجول

(...)

"... ومن ناحية أخرى بدأت الأسواق غير الرسمية عندما سعى الباعة العاملون فى الشوارع إلى وضع حد لحالة عدم الأمان التي يعملون فيها".

***

لاحظت زوجتي مدى تأثري، فحاولت أن تحول دون استمراري فى القراءة، ذكرتني بأنني لم أتناول الدواء المخفض للضغط. ناولتني كوب ماء وعلبة الدواء، ابتلعت قرصاً، وواصلت القراءة.

"... إن الوضع غير الرسمي ليس هو أفضل العوالم الممكنة، إنه يتضمن تكاليف هائلة، وإن الناس يحاولون تعويض هذه التكاليف بكل أنواع الطرق المبتكرة وإن كانت قاصرة. وإن خرق القانون ليس أمراً مستحباً فى نهاية المطاف، وإن كل ما نراه من فوضى وإهدار للموارد وعمليات للتصدي، وأعمال يومية تتسم بالجرأة ما هي إلا محاولات يائسة ومغامرة من أصحاب الوضع غير الرسمي لوضع نظام بديل لذلك النظام

الذى ينكر عليهم حمايته".

***

مدت زوجتي يدها باتجاه الكتاب، لم أغلقه وأبعدت يدها، فعاودت مطالبتها لي بأن أغلق الكتاب لأستريح قليلاً، أدرك أنني لن أنام، فواصلت القراءة:

"... وترجع أزمة مؤسساتنا القانونية جزئياً إلى إنها فقدت تدريجياً مصداقيتها (...) فقد كفت هذه المؤسسات عن أن توفر الوسائل اللازمة لحكم المجتمع والحياة فيه".

***

(خ)

عقب صلاة الفجر أيقظت عنتر. أطل من النافذة وهو شبه نائم، فتح فمه ولم ينطق، بدا وكأنه لا يراني على الرغم من تحديقه في، ارتفع صوتي:

.– أريدك فى سفر

سمعني فرآني، رد وهو يتثاءب:

– خير إن شاء الله.

وقبل أن أنطق بوجهتي، غادر النافذة بينما صوته يصلني:

– بعد نصف ساعة تجدني أمام بيتك

فى انتظاره راح الأب يذكرني بأسماء الأماكن التي تشهد أسواقاً يوم الأربعاء. وعند ذكر كل بلد يتوقف قليلاً، يحكى عن صديق، زملاء ربع قرن قضاه في الجيش، أغلبهم أُستشهدوا في حرب من الحروب العديدة التي لا ينساها، تطوع أبى فى الجيش عام ١٩٥٤ إثر خلاف مع أبيه، أهانه الجد وطرده من البيت، أبت كرامته أن يعود ذليلا ولم يجد مكانا، فلجأ إلى الجيش، وخرج منه عام قبيل نهاية عام ١٩٧٩، خاض كل الحروب، وامتلأت كوابيسه بالدانات، والغارات، واتخمت ذاكرته بأسماء الشهداء.

حضور عنتر منع الأب من الاسترسال، فأشعل سيجارتين، ناول إحداهما لعنتر الذي توقف أمام البيت، ولم يرفع يده عن الكلاكس إلا بعد أن مد يده ليلتقط سيجارة أبي.

***

(د)

توقفنا أولاً عند قسم الجيزة، كان الوقت مبكرا، وكان الملازم ويشرب شاياً بالحليب. يتثاءب قبل أن أكمل كلامي أشار بأن أتوقف، قال:

– بعد مرور ٢٤ ساعة تقدموا بلاغ باختفائه.

اعترضت قائلا:

– أنا لا أبلغ عن اختفائه، فقط أريد التأكد إن كان محتجزاً هنا أم لا؟

سألني عن الاسم. أجبته: بلهفة:

ـ غريب أحمد منصور.

لم يرد عليَ أحدا بهذا الاسم.

رجوته:

– إن كان لديك بيان بأسماء المحتجزين أرجو أن تراجعه.

تبدلت ملامحه وبرزت أنيابه التي كشر عنها وهو يصيح:

– قلت لك ليس هنا

قالها بلهجة حادة تجمع بين الغضب والتحذير، فغادرته عائداً إلى التاكسي، وعند مديرية أمن الجيزة توقف عنتر. نهره الجندي الذي أمرنا بأن نبتعد:

– ابعد يا أجرة.

أشار عنتر بأن ينزلني ثم يبتعد، لكن الجندي رفض أن يمنحني الفرصة:

– قلت لك اطلع يا أجرة أحسن لك

***

عدت المائة متر التي ابتعدها التاكسي مغتاظاً وأنا أضرب وجه الأسفلت بعكازي. رمقت الجندي بغضب. تبدلت لهجته الآمرة:

– أسف يا أستاذ. إن رأى الباشا التاكسي واقفا أمام باب المديرية لن يرحمني.

سألته عن الحجز فسألني عن الحكاية. فلما سمعها قال:

– شباب هذه الأيام غاوى يطفش، لا يتحمل كلمة من أبوه ولا شخطة.

– هو لم يطفش

تجاوز عن لهجتى الغضبى، وأسدى لي معروفاً.

– لن يجيبك الضابط عن شئ. فلا تقصده واذهب إلى عم خلف. هو رجل طيب وحينما يراك بالعكاز سيخدمك لوجه الله، ومن باب الاحتياط قل له فراج بلدياتك اللى ع البوابة باعتني لك.

وصف لي الطريق إلى خلف، الذي سمع حكايتي بنصف انتباه ثم قادني صامتا إلى غرفة الحجز.

وقف ببابها، وهتف منادياً:

– غريب أحمد منصور .. غريب أحمد منصور

ظل ينادي الاسم مرات ومرات، لكن غريبا لم يرد، فنصحني خلف بالبحث فى المستشفيات.

***

(ذ)

وقفت طويلاً فى انتظار عنتر. تصفحت الجرائد بسرعة ثم طويتها. أعدت فرد إحداها على الرصيف وجلست. ولما حضر عنتر اعتذر. قال إنه ذهب إلى محل عمله القريب ليوقع فى دفتر الحضور. ضحك وهو يشكو:

– المدير ابن الكلب استغل الظروف.

واصل موضحا دون أن أسأله:

– كل يوم أفطره فول وطعمية لكنه اليوم طلب قشطه وبيض وجبنه رومي.

– إفطار يوم كلفك ثمن إفطار أسبوع

– لأجل خاطرك أحضرتهم له مع باكو شاي، قلت له إن مشواري سيطول وقد لا أعود في نهاية الدوام، فقال إنه سيوقع لي فى الدفتر عند الانصراف أيضا.

***

(ر)

عرجنا على منزل الأستاذ رشدي صاحب مكتب المحاسبة الذى أعمل به. ظننت أن بوسعه أن يفعل شيئاً، فحكيت له، وهو بدوره حرص على تقصى كل التفاصيل، ولما انتهيت منحنى إجازة، وأقرضني مائة جنيه، ثم زفر وقال:

– ربنا يجازى أولاد الحرام

***

(ز)

قادني عنتر إلى قسم إمبابة ثم مستشفى إمبابة العام، بعده قصدنا مركزي شرطة الوراق والمناشي، وفى كل مكان نرى الضابط الذى كان يشرب الشاي بالحليب فى قسم الجيزة، هو نفسه الضابط، حتى وإن غير مشروبه ولون عينيه، قد تنطفئ السيجارة بين أصابعه أو تشتعل لكنه هو نفسه.

وفى كل مرة يقول إن الاسم لم يمر عليه (سيتضح كذبه

فيما بعد) وفى كل مرة يرفض إلقاء نظرة على أسماء المحتجزين (لا يوجد كشوف بأسمائهم)، وكل مرة يزمجر وهو يطالبني بألا أزعجه، وينصحني بأن أصمت وأبتعد.

***

قبل أن نجتاز الجيزة إلى القليوبية تذكرت أنى لم أتصل بالبيت. قلت لعنتر فتوقف عندما رأى كابينة التليفون. علمت أن هاني لم يتصل، وأن مُحَّمد تحدث مرتين من الحوامدية ثم من البدرشين، ولا جديد عنده.

اتصلت بهاني فلم أجده، عدت إلى التاكسي فلاحظت أن العداد عاد إلى رقم البداية، لمح عنتر نظرتي المستريبة أو لعله توقعها، فقال موضحا:

– عندما يصل إلى ستين جنيه لابد أن أعيده إلى البداية حتى لا يحترق.

***

(س)

كان الزحام فى مركز شرطة القناطر شديداً جداً وكأننا فى ساحة سوق، أوقفني مخبر سرى. سألني عن مقصدي، ثم أشار بيديه لأعلى:

– اسأل عم حنفي. ستجده في حجرة النوبتجية.

على السلم زاحمني مخبر آخر. رأيته يقود أربعة صبية. لحاهم لم تنبت بعد وثيابهم بيض. سبقني بهم إلى حجرة النوبتجية. سمعته يقول للضابط:

– تحري يا باشا

قال الضابط بلهجة آمرة:

ـــ قل لحنفي يعمل لهم أربعة محاضر

ثم التفت للصبية:

– تعال هنا يا ..... أنت وهو

اقتربوا. أشار لهم بأن يتحركوا ناحيته فاقتربوا أكثر،الضابط في وجوههم، ثم سحب نفساً عميقاً من سيجارته، ثم نفث الدخان فى وجه أقربهم إليه. أعاد تفحصهم، ثم صفع أطولهم:

– ما اسمك ؟

– مُحَمَّد على إبراهيم

– كم سنك؟

– ١٦ سنة

– ماذا تعمل؟

– طالب في سنة أولى تدريب مهني

_ أين تسكن؟

– في بهتيم.

– أبوك يشتغل إيه؟

– نجار مسلح

نفس الأسئلة وجهها للباقين. وتقريبا تلقى نفس الأجوبة، ولما انتهى عاد لسيجارته. نفث دخانها فى وجه أحدهم. صفع آخر. سأل الثالث:

– قل أنت. وإياك والكذب.

– أنا لا أكذب يا باشا.

– لماذا جئتم القناطر؟

– نحن خرجنا فى سبيل الله

شخر الضابط وهو يقهقه:

– إيه؟ فى سبيل إيه؟ يعني إيه؟ جايين فى غزوة للقناطر يعنى؟

ظل الضابط يضحك ساخراً بينما الصبية واجمين. ولما شعر الضابط بأنهم حصلوا على وقت أطول من اللازم، أشار لهم بأن يبتعدوا ثم راح يصرخ في حنفي:

– حنفي .. يا حنفيييي ...

– أمرك يا باشا

– المحاضر تخلص بسرعة

– فى ثوان يا باشا

طال وقوفى فتوجهت لحنفي، لم يلتفت لي. ولما أصررت على سؤاله شخط:

– نعم يا سيدى

سألته عن غريب فقال:

– بعد ما أخلص المحاضر أشوف لك دفتر الأحوال

دخل ضابط المباحث نظر إلى الصبية. سأل عن حكايتهم، عاد زميله للقهقهة والشخر:

– بيقولوا خارجين فى سبيل الله

– يبقوا من الأحباب.

– أحباب مين؟

– ده الاسم الشائع والمتداول لجماعة اسمها التبليغ والدعوة. العوام بيسموهم كده.

– جماعة؟

_ جماعة مستأنسة لا خوف منها.

– إزاي؟

– ما بيتكلموش فى السياسة. وناسها غالبا جهلة وطيبين لحد الهبل. أو زي العيال اللى قدامك دول.

– كنت ناوي أوردهم النهاردة لأمن الدولة.

– لا بلاش، متضحكهمش علينا

– معنى كده إنهم عارفينهم كويس؟

– طبعاً، وعلى فكرة ممكن تقطع المحاضر وتسيبهم يمشوا.

– بسرعة كده؟

– لو معندكش غيرهم وناوي تتسلى بيهم، خليهم عندك لبكرة.

– عندي فضول أعرفهم كويس

– ماشي لكن خد بالك يومين بالكتير ويمشوا، مش ناقصين دوشة.

فرغ حنفى من المحاضر أسرعت بسؤاله عن غريب. لم يفتح دفتر الأحوال. أجاب بسرعة:

– الاسم ده ما وردش علينا، ده غير إن سوق القناطر يوم الثلاثاء وليس الأربعاء. لكن بالأمس وقعت حادثة على الطريق والمصابين مازالوا بالمستشفى. روح شوفه هناك يمكن تلقاه.

***

(ش)

فى المستشفى دلونى على كاتبة الاستقبال. وجدتها تشرب الشاي، إلى جوارها امرأة بدينة، يبدو أنها تكبرها بنحو عشر سنوات على الأقل. اقتربت فسمعت المرأة تنصح كاتبة الاستقبال:

– خلى بالك منه

– ما تخافيش

– ده تعلب كبير، أنا خايفة عليك؟

تضحك بميوعة:

– لا خالص مفيش قلق، يبقى انت لسة متعرفينيش

أمسكت المرأة بكوب الشاي، فأسرعت بسؤال كاتبة الاستقبال قبل أن تواصل البدينة نصائحها. غادرت كاتبة الاستقبال مكتبها. فتحت دولاب وراحت تخرج منه دفاتر عدة. وضعت أحدها على المكتب، وأعادت بقية الدفاتر إلى مكانها فى الدولاب. تأملت محتويات الدولاب لثوان قبل أن تغلقه وتجلس إلى مكتبها. رشفت رشفتين بصوت مسموع. عاودت زميلتها تحذيرها:

– لقد حضر، خلى بالك

أرسلت عينيها باتجاه الباب، فاصطدمتا بالداخل، بادرها الرجل، قال بصوت محايد:

– النيابة طلبت ملف تسمم التلامذة

تنظر باتجاهه ولا ترد، يتعجلها:

– انجزي مندوب النيابة مستعجل.

– التلامذة بتوع الشهر اللى فات.

– لا، بتوع الشهر اللى قبله.

– مش وقت هزار.

– أنا بتكلم جد.

ــ وإيه بقى اللى فكرهم بعد شهرين؟

– سيبى اللى معاك وشوفي الملف بسرعة، بقول لك مندوب

مخصوص من النيابة منتظر فوق عند المدير

غادرت المكتب. أعادت فتح الدولاب. اختفت بين الملفات. ذكرها زميلها:

– الشهر اللى قبل اللى فات يعنى ملف العيال ال١٤.

– عارفة الشهر اللى فات تسمم تسعة بس

– وعلى آخر السنة تكون المدرسة كلها تسممت

خشيت أن يطول حوارهما، فرجوت زميلتها أن تبحث هي عن أسماء مصابي الأمس. رمقتني صامتة، قذفت بقطعة اللادن التي تلوكها، فأدخلتها إلى السلة، فتحت الدفتر وطالبتني أن أبحث بنفسي. قرأت الأسماء كلها ولم يكن بينها اسم غريب.

***

(ص)

كانت ساحة سوق الباجور موحلة، ركن عنتر السيارة إلى جوار مقهى، جلست بينما ذهب هو ليشتري سندويتشات. لم أستطع ابتلاع شيئا حتى ولو لقمة واحدة، فقط شربت الشاي والأسبرين لأقاوم الصداع والبرد، اقترب منا صاحب المقهى. أدرك إننا غرباء فجاء يسأل عن مقصدنا، أخبرناه بالأمر فقال:

– بالأمس كنت في مشوار في مصر، الولد مرعى كان هو الموجود.

رجوناه معا:

– ليتك تناده

– هو ليس موجوداً الآن سيعود خلال ساعة

كان لا بد أن نجلس تلك الساعة، ننتظر عودة مرعى، فتذكرت مرعى آخر كان زميلي فى الجامعة، ويسكن الحجرة المجاورة لحجرتي فى المدينة الجامعية. دخلت حجرته فرأيت صورة جيفارا. سألني إن كنت أعرف الشيخ إمام؟

فأجبت بأنه ابن قريتي، وطلبت أن يسمعني أغنية جيفارا مات. نقر بأصابعه على المكتب عازفاً اللحن الجنائزي، بدا متأثراً وكأن جيفارا مات قد لتوه، ولما انتهت الأغنية عاد لحالته العادية، بشرا سويا، صمت لحظات ثم فاجأني متسائلا:

–هل قرأت هذا الكتاب؟

كان يمسك برواية مائة عام من العزلة، لم أكن قد قرأتها بعد. أجبت بالنفي، فنصح بأن أقرأها. مددت يدى لآخذ الكتاب فرفض، ثم سألني هل معك فلوس؟

تعجبت وانشغلت بمحاولة فهم مغزى سؤاله، ابتسم قائلا: ما تخافش لن أطلب منك فلوس سلف، لو معك ثلاثة جنيهات اذهب إلى ميدان الجيزة، هناك تجد مكتبة تتبع هيئة الكتاب، في فاترينة العرض ثمة نسخ قليلة من الرواية، أسرع واشتر واحدة قبل أن تنفد، لابد أن تقتنيها.

وعدته بأن أفعل، ومددت يدي ثانية طالبا الرواية، فاجأني بأن طلب كتاباً مقابلها. ابتسمت سائلا: رهن أم بدل؟ قال رهن طبعا حتى أضمن أن ترد لي كتابي. غادرته لدقيقتين، قصدت غرفتي وعدت وفى يدى أحد أجزاء الدون الهادئ.

***

اعتدنا تبادل الكتب والشرائط. قرأنا معاً ديستويفسكي وبابلو نيرودا وناظم حكمت وأمل دنقل، سمعنا معاً فيروز ومارسيل خليفة وعبدالحليم حافظ وأم كلثوم وسيد درويش، والشيخ إمام.

عشق مرعي الكبير لأمل دنقل ويقينه الراسخ أن كل ما سيكتبه لن يساوى حرفا من شعر أمل جعلاه يُقلع عن كتابة الشعر، وحينما شاركنا فتحى رضوان فى التظاهر أمام جامعة القاهرة، احتجاجاً على اغتيال سليمان خاطر جأر مرعى بقصيدة لا تصالح، وتلاها بأيها الواقفون على حافة المذبحة.

هذه القصيدة بالذات كانت شعاره، ينشدها فى كل المواقف، حتى حينما نقصد مطعم المدينة الجامعية ونجده مغلقاً كان ينشدها ضاحكاً.

كان يخرِج الملعقة من مكمنها داخل الجورب، يشير بها ثم يصيح:

المنازل أضرحة

والزنازن أضرحة

والمدن أضرحة

ثم يضع ملعقته في جيبه قبل أن يكمل:

فارفعوا الأسلحة واتبعوني

وبعدما يفرغ من الطعام ينقر على الصينية الفارغة

ويغنى لسيد درويش: "دنجى .. دنجى".

ثم يغسل الملعقة ويعيدها إلى مكمنها داخل الجورب،

وفى الطريق لحجرتينا يحدثني عن حلمه بأن يصير مغنيا.

سبقني مرعي فى التخرج بعام، زارني أكثر من مرة فى العام الذى بقيته بعده في الجامعة خصوصا في الفترة التي سبقت دخوله الجيش، بعدها قلت زياراته لكن لم تنقطع، حينما أراه كنت أحن لسنوات ثلاثة قضيناها معا، ومرت سريعاً.

***

كان يأتيني ليبوح بعذاباته ويغنى، ينتقل من "حبيتك بالصيف" إلى "بين ريتا وعيوني بندقية "، ثم يكف عن الغناء ليحكي عن "دنيا" التي لم تصن عهد الهوى، وعن أخيه الذى عاد من العراق قتيلاً، وعن شهور التجنيد التي لا تنتهى، ثم يختم حديثه بلازمة أبدية:

"مرت أزمنة الجد والفرح،

ولم يبق إلا التعاسة

والشقاء"

يرددها كثيراً قبل أن ينخرط فى الغناء أو الصمت المطبق.

***

أشعر بالحنين إلي مرعي، أتذكر صوته العذب الشجي، قهقهته وهو يحكى كثيراً عن "مائة عام من العزلة" والفتاة التي طارت بواسطة ملاءات السرير، يتمنى لو يفعلها هو ودنيا. لو يطيران بعيدا. بعيدا حيث لا أحد.

***

أتذكر أنى لم أكتب له ولا رسالة واحدة طيلة السنوات التي مضت على تخرجي فى الجامعة. هو أيضاً لم يرسل لي. كل الذين أحببتهم لم أزرهم، ولم أراسلهم. هم أيضاً لم يفعلوا بالرغم من تبادلنا للعناوين. فهل كنا حقاً أصدقاء؟

***

سألت صاحب المقهى عن مرعى الآخر، كان يعرفه، قال:

- عمله ليس بعيداً عن هنا.

وصف لنا مكان عمله فتركت عنتر يدخن الشيشة وذهبت إليه وحدي. تذكرني فور رؤيته لي. وصامتان تعانقنا وبكينا. أشرت إلى الكرش الذى تضخم بشدة، فقال:

- معلق أنا على مشانق الصباح وجبهتي نحو الأطباق محنية

- ما زلت تستعير قصائد أمل دنقل

- الأطباق وما فيها من إبداعي الخالص

ضحكنا. نسيت همي للحظات، نهض وأمسك بيدي، انتحى بي مكاناً قصياً فأدركت أنه بحاجة للبوح، استمعت إليه فاكتشفت صوته فاقداً العذوبة التي كانت له.

حكى عن أرملة أخيه رضوان. أصر الأب أن يزوجه بها ليربي أولاد أخيه. وافق فقط ليرضى الأب ويداوى شروخاً فى القلب أحدثتها "دنيا".

لكن الشروخ واصلت الاتساع، وتهاوى القلب فتسربت الروح من جوفه تدريجيا، وبقى شبحه يخالط الناس، ودع الأحلام القديمة. لم يبق منها إلا ذكريات باهتة. وحتى لا يستعيدها سألني عن سر الزيارة الغريبة، حكيت له فاعتذر لأنه شغلني عن مأساتي بحكايته القديمة، رافقني حتى المقهى. علمت من عنتر أن صبى المقهى حضر. هرعت ناحيته، سألته عن أحداث الأمس، فأخبرني عن معركة شهدها السوق بالأمس وخلفت أكثر من ضحية.

***

(ض)

في المستشفى أفاد الطبيب بأن ثلاثة من مصابي المعركة عولجوا وغادروا في نفس اليوم. لم يكن أحدهم يحمل اسم غريب أما الرابع فهو رجل في الخمسين جبسوا ساقه اليسرى المكسورة، وأبقوه بالمستشفى. وبغلظة أخبر عن الخامس:

- اذهبوا لعم بدوى في المشرحة ربما يكون القتيل هو من تبحثون عنه.

عند المشرحة بادرنا بدوى بالسؤال:

رجل أم امرأة؟

أجاب عنتر:

- شاب في حدود الثلاثين.

- أوصافه؟

سألني عنتر:

_ ماذا كان يلبس؟

أجبت بانقباض:

- بنطلون جينز أزرق وجاكيت جلد أسود، وعلى الرأس والكتفين شال أبيض.

أضاف عنتر سائلا عامل المشرحة:

- اسمه غريب أحمد منصور

قال بدوى:

- هذه الأوصاف تنطبق على جثة وردت بالأمس. لم تكن من ضحايا خناقة السوق، لكن يبدو أن حافظة نقوده سرقت فلم نعرف اسمه لكنه جاء بدون الشال.

***

جزعت. غزتني رغبة في القيء. أحسست وكأن روحي تتسرب مغادرة جسدي المنهك الذى تجمد مكانه. ولما أرانا بدوى الجثة المنكفئة على وجهها سمعت عنتر يقول:

– هو .. هو غريب.

نظر لي مواسيا بصمت، صرخت ملتاعاً. قفزت معانقاً الجثة. انكفأت عليها. واصلت الصراخ. صرختي كأنها حُملت بكل عذابات غريب وإحباطاته، فخرجت وكأنها شوك ينزع من أحشائي. يُمزقها. ولما حاولت تقبيل الوجه شعرت بالشارب الكث، انتبهت، أخي غريب لم يكن ذا شارب. أدرت الوجه. لم يكن هو.

وحينما ارتطمت بأرض المستشفى سمعت صوتي يهتف:

– ليس هو .. ليس هو.

***

(ط)

مرعى وعنتر حملاني إلى التاكسي.

أصر مرعى على مرافقتنا حتى سوق أشمون.

أخبرني عنتر عن اتصاله بأبي النمرس. قالوا له أن مُحَمَّد اتصل مرتين من العياط ومن الصف، ولم يأت بخبر، لم يبق له إلا أطفيح بينما بقيت لي أشمون.

طوال الطريق وعنتر يجتر ذكريات عن أشمون جريس، يترحم على أيام قضاها هناك، يصفها بأنها بلد الخير.

– والله يا أستاذ مرعى أشمون جريس بلد كلها خير، وأهلها جميعهم كرام.

في كل مرة تكون هذه الجملة افتتاحية لحكاية تذكرها في لحظته، وكل حكاياته مرتبطة بالمرحوم زوج خالته الذى كان يعمل بالجمعية الزراعية بأشمون. كان عنتر طفلاً، واعتادت أمه أن تصحبه كل صيف لزيارة شقيقتها. وكانت تعود بدونه، فخالته كانت تستبقيه.

– تصدق بإيه يا أستاذ مرعى؟

– بالله العظيم.

– والله العظيم، والله العظيم الأرز المعمر الذى أكلته في أشمون جريس، وأنا طفل صغير، رائحته لم تغادر أنفى حتى الآن.

– معقول؟

– يا سلام على رائحته. يا سلام على السمن البلدي العايم على وش الطاجن ..

– واضح إن الست خالتك كانت طباخة هائلة.

– لم تكن هي. كانوا الجيران.. مش قلت لك كل أهل أشمون جريس كرام، ما أن يستشعروا وجودنا حتى يطرقوا باب خالتي. وخذ عندك يا أستاذ مرعي .. واحدة تحمل حلة لبن، وأخرى تأتى

بالقشطة والجبن الحلوب، وغيرها بالبيض، وغيرها بالأرز المعمر. كل هذا بخلاف العيش الطازج الخارج لتوه من الفرن. كانوا يعرفون أن خالتي غريبة، ويريدون عدم إشعارها بالغربة خاصة أثناء زيارات أهلها لها.

***

وفي مركز أشمون أشعل مرعى سيجارة لمساعد الشرطة. وهمس في أذنه، سحب الرجل نفساً ثم نفث الدخان وقال:

– جاءنا بالأمس شابين قضيا ليلتهما بالحجز، وصباح اليوم تم ترحيلهما، واحد إلى طنطا والآخر إلى بنها.

بنها وطنطا، إذن لم يكن غريب أحدهما، قصدنا المستشفى ولم نجد غريبا فعدنا نقطع الطريق في عكس الاتجاه.

***

(ظ)

عند مدخل أبو النمرس استوقفنا رجال الشرطة. فتشونا واطلعوا على ما يثبت هوياتنا قبل أن يسمحوا لنا بالدخول إلى بلدنا.

عاودتني الرغبة في القيء لكنني حرصت على متابعة العداد، قرأت الرقم (٤٨٠٠). إذن كان عنتر يكذب حينما أعاد العداد إلى رقم البداية قبل أن نمر ببنها في طريقنا.

لحظتها غلبني القيء فغادرت التاكسي. أسندت رأسي إلى السور المحيط بترعة المنصورية وأفرغت جوفي. ولما عدت وجدت العداد ثانية عند نقطة البداية جادلت عنتر، فأكد أنى لم أر جيداً لكوني متعب. أصر على أن العداد وصل إلى ستين جنيه، فأعاده إلى البداية حتى لا يحترق.

كنت على يقين من كذبه لكن استسلمت. عددت مائة وعشرين جنيهاً، مددت يدى بالنقود فسألني:

– كم ؟

– مائة وعشرون جنيها

– حسابي يا أستاذ مائة وخمسين

– كيف؟

– ١٢٠ للعداد للبنزين والتاكسي، أما أنا فأتعابي ربعهم فقط، يعنى يا دوب ٣٠ جنيه، وده وحياة أولادي عشان بس غلاوتك والضيقة اللي انتوا فيها.

بلغ استسلامي منتهاه. فأضفت الثلاثين جنيهاً إلى ما في يدى، لكن عنتر رفض أن يلمسها. أقسم بأغلظ الأيمانات ألا تدخل جيبه قبل رجوع غريب.

***

(٤)

– هل وجدته؟

عشرات الأفواه قذفتني بالسؤال.

لم يره أحد يغادر التاكسي فكان من الطبيعي أن يعلموا بالإجابة دون حاجة للسؤال، لكن أعذرهم. جميعهم تمنى لو يعود، فكأنهم يسألونني عن سر الغياب. خاصة أن مُحَمَّد عاد بدونه، قبل وصولي بساعتين فأصبحت مناط أملهم.

بدا البيت وكأنه يشهد مأتماً، الجيران والأقارب يملؤون البيت. الذى ينصرف يجئ غيره. الجميع يواسى، يطمئنا ويرجو أن يطمئن، ويحكى عن وقائع متشابهة.

كان الأب حزيناً ومرهقاً، يدخن بشراهة، رجوته أن يكف. نظر لي صامتاً ثم سحب من سيجارته نفساً عميقاً.

من الداخل نادتني أمي. رمتني بنفس السؤال كانت تبكى والنسوة يواسينها، رأيت بينهن الجارة بسيمة، كانت تبكى بحرقة وهى صامتة، إلى جوارها تجلس زينات التي كانت تتكلم كثيراً وتؤكد بثقة على أنه بخير وسيعود غدا، تبدو وكأنها تعرف مكانه. أكدت أن ابنها سرحان تعرض منذ شهرين لنفس الموقف. غاب يومين وعاد بعد ظهر اليوم الثالث.

طلبت الجدة أن أدع أمي معها، وأصعد شقتي لأستريح. معي صعد مُحَمَّد. لاحظ حزني وشرودي فحاول أن يسرى عنى:

– بسيمة كانت تبكى بحرقة.

– لاحظت ذلك.

ابتسم مضيفاً:

– يبدو أنها مازالت تحبه مع أنه قطع علاقته معها منذ أكثر من سنة.

– ما كان بينهما ليس حبا، كان الأمر مجرد نزوة.

– برأيك أيهما تنتظره بشوق أكثر بسيمة أم زينات؟

– وهل ترى الوقت مناسباً لهذه السخافة؟

أدرك حدة ردي، خشى أن يرافقها اتهام بالشماتة أو على الأقل عدم الاهتمام بما يحدث لأخيه. حاول أن يبدو مطمئنا على غريب، وأن ينقل لي اطمئنانه لينفي التهمة التي لم يوجهها له أحد.

– قلبي يحدثني إنه لم يصب بمكروه.

– ولم غاب إذن؟ وأين؟

– الشرطة يا أخي. ابحث عن الشرطة.

– طوال اليوم وأنا أبحث.

– كل زملائه تعرضوا لمثل هذا الموقف. مؤكد إنه في أحد المراكز أو الأقسام التي مررنا بها. وسوف يعود. قد يعود خلال يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، هذا يحدث مع الجميع ممن يمارسون مهنته، فلا تقلق.

كان موقناً من صحة كلامه، فبدا وكأنه غير قلق. أعلم أن الشرطة

تنشط للقبض على الباعة الجائلين خصوصا في مثل هذه الأيام. يحمون منهم المستهلك والاقتصاد القومي. لماذا لم يقرؤوا هرناندو دى سوتو؟ واستمعوا فقـط لمن وصفه أبى بـ "ابن ...... ".

أتمنى أن تصدق توقعات مُحَمَّد. لكن ماذا لو لم تصدق؟ ألزم الصمت فيغادرني مُحَمَّد. أبقى وحيدا إلا من قلقي، أتذكر تلميحات مُحَمَّد عن بسيمة وزينات. دون أن أشعر أو يقصد ألقى إلى بطوق نجاة ينتشلني قليلاً من كربى.

***

بسيمة متزوجة من جارنا فؤاد الموظف بالإدارة الهندسية. هو المسئول عن استخراج تراخيص المباني. يكسب كثيراً من هذا العمل فالتراخيص لا تمنح إلا لمن يدفع. لم يحتج لعمل آخر بعد الظهر أو في المساء. فكان يقضى بقية نهاره في لعب الكرة في " أرض النخل " ذلك الملعب الصغير خارج مدينتنا والمحاط بالنخيل من كل جانب.

كان فؤاد عارفا بمهارة غريب في لعب الكرة فإن رآه يدعوه ليكون ضمن فريقه. سرعان ما أصبحا صديقين رغم فارق السن. حتى السهرات كانا يقضيانها معاً. وغالباً ما تكون في بيت فؤاد.

عند الباب يهتف غريب: "يا فؤادي" فيأتيه الرد بضحكة فؤاد وكلمة بسيمة:

– اطلع يا غريب.

يتضاحك فؤاد:

– ما غريب إلا الشيطان.

كانت بسيمة تسهر معهما، تعد الشاي على موقد السبرتو، وهم يقضون الأمسيات الصيفية على سطح البيت ويستمعون إلى أم كلثوم عبر الكاسيت، ويتسلون بقزقزة اللب والفول السوداني وإطلاق النكات.

بسيمة تقوم كثيراً لتلقى نظرة على الأطفال النائمين أو لتبعد قطاً يحوم حول حظيرة أفراخها. ومع كل قيام وقعود يتابعها غريب بتركيز شديد فثوبها المنزلي الخفيف يكشف عند كل قيام وقعود عن مساحات من فخذيها البضين. أما إذ بكى الصغير مراد فهي تلقمه ثديها. ساعتها يتمنى غريب ألا يشبع الطفل.

في الصيف قبل الماضي أصيب فؤاد أثناء لعب الكرة، حدث أن عرقله أحد منافسيه فارتطم بالأرض. شعر بآلام حارقة في ساقه. قام غاضباً يتوعد من أوقعه. زادت الآلام ولم يستطع الخطو. سقط ثانية فارتطمت رأسه بجذع نخلة وفقد الوعى.

في المستشفى بكت بسيمة وأصرت على أن تبيت مع زوجها لكن الزوج رفض، طمأنته بأنها أرسلت العيال ليبيتوا مع أمها ولم يبق معها إلا الرضيع. ذكرها الزوج بأنه سيقضى ليلته في عنبر الرجال فأثناها عن عزمها. رافقها غريب الذى كان آخر المغادرين من زوار فؤاد.

رآه محمد يحمل عنها الطفل ويدخل معها البيت، ورآه يخرج من عندها

بعد انتصاف الليل. ارتاب في الأمر، فحاصر غريبا حتى اعترف بما حدث ليتخلص من إلحاحه. لم يقل إلا جملة واحدة

– الشيطان ضحك علينا .

***

محمد لم ير أخيه غريبا، وهو يتسلل داخلاً بيت زينات، لكنه هو الذى حكى. كان عائداً من أحد الأسواق بعد العصر، والكرتونة كما هي، لم تنقص شيئاً. زينات أفسحت له مكاناً إلى جوارها في الميكروباص المكتظ بركابه. سألته:

– لماذا لم تسافر مع ابنى سرحان؟

– لا أحب شغل المحافظات.

– لكنه أفضل من الشغل هنا.

– أنا لا أحب الغربة، و رب هنا هو رب هناك.

– راجع نفسك وفكر، المحافظات ليست سفرا، وهناك أحسن من هنا، فسرحان يغيب شهراً أو شهر ونصف ويعود مجبور الخاطر، غير راحته من البلدية والشرطة والرجوع بالكرتونة كما هي دون أن تنقص.

عند آخر الخط غادروا الميكروباص، وغريب لم يزل يستشعر الدفء المنبعث من فخذ زينات، وكأنه مازال ملتصق بها. سارا خطوات معاً فأخبرته بأن سرحان المسافر منذ أسبوعين أوحشها، وأن زميلاً له سيمر

عليها ليحمل رسالة إليه، وطلبت من غريب أن يكتب لها الرسالة.

سارا معا صوب بيتها، سمع حكاياتها عن بوار سلعتها، فالعرائس الآن يذهبن للكوافير ولا يأتين لها، وسرحان يظن أنها تكسب كثيراً ولا يرسل لها مالاً.

بالقرب من الباب وضع غريب الكرتونة، جلس على الكنبة وغادرته لدقائق. عادت ومعها قلم وكراسة. جلست إلى جوار غريب لتملي عليه الرسالة. تحدثت عن أشواقها للابن المسافر وبكت مشيحة بوجهها عن غريب.

أما هو فقد ربت على كتفها فاقتربت – بظهرها – منه، ولم تكف عن البكاء. أراح يسراه على كتفها الأيمن وهى لم تكف. هبطت يسراه قليلاً ثم تسللت عبر الإبط إلى الثدي. قبض عليه بشدة فتأوهت وهى تبكى. أمسكت يمناه بالثدي الآخر فكفت عن البكاء، وعادت تنظر إليه. قبل شفتيها فأغمضت عينيها. ولما أطال المداعبة حذرته من الإبطاء فقد يأتي زميل سرحان ليتسلم الرسالة وتضيع الفرصة.

ليلتها لم ينم مُحَمَّد قبل أن يحكى لي. قال إن غريب سيضيع، ولا بد أن نفعل شيئاً لإنقاذه. واجهت غريبا فلم ينكر. حاولت القيام بدور الأب الناصح فلم أفلح.

قال لي:

– لا تلمني. لو كنت مكاني هل كنت تستطيع الرفض؟

– وبسيمة؟

– كانت غلطة.

– غلطاتك كثيرة .

– ماذا أفعل وقد تجاوزت الثلاثين، بلا عمل، وبلا أمل في المستقبل أو في الزواج أو في أي شيء؟

– وهل الزنا هو الحل؟

– ليس حلاً، لكنني أريد أن أنسى قليلاً ما بي.

– كأنك تعتبره مخدراً.

– أعتبره كذلك، المهم إنه ينسيني متاعبي ومشاكلي ولو للحظات.

جادلت طويلاً فلم تبد عليه نية في التراجع. اضطررت لإجباره على القسم. وضع المصحف على عينيه، بكى وأقسم ألا يعود لمثل ذلك.

وفي الأيام التالية كان يتجنب رؤيتي. لا أدرى إن كان خجلاً بعدما عرفت سره أم ندماً بعدما اقتنع بخطئه؟ أم لعله ضاق بي لأن إلحاحي دفعه لقسم قد يحنث به؟

لم أشك لحظة في التزامه بالقسم. لكن عاودني الشعور بالعجز وأنا غير قادر على مساعدته بأي شيء للخروج من أزمته ووقف هجمة الشحوب عليه.

نفس الشعور بالعجز انتابني بعد عودته من السعودية بناء على

نصيحتي أيضاً، فقررت ألا أنصحه بعد اليوم وألا أدعوه لفعل شيء أو أنهاه عن فعل شيء.

أقنعت نفسى بألا أستمرئ دور العاقل الناصح فأنا أحوج للنصيحة وأعجز عن أن أفعل شيئاً لنفسي أو لغيرى.

***

(غ)

آلام المخاض فاجأت زوجتي. أمي وجدتي هرعتا إليها. بعد دقائق خرجت جدتي. قالت أن الوقت لم يزل مبكراً، والولادة لن تتم قبل الفجر. تبعتها أمي. حذرتني:

– إن جاء المولود ذكراً إياك أن تسميه غريبا.

لم يخطر ببالي أن أمنح المولود اسم أخي، لكن تعجبت. سألتها عن السبب، لم تجب إلا بالبكاء. أنابت عنها الجدة في الجواب:

– هذا فأل سيئ يا ولدي.

لم أفهم. استوضحت فتذكرت الجدة يوم ولادة أخي مُحَمَّد. حكت أن أبى أراد أن يسميه على اسم أبيه "مُحَمَّد"، ابنتها وافقت لأن مُحَمَّد هو أيضاً اسم أبيها. جدتي لأبى غضبت مدعية أن مُحَمَّد المقصود ليس زوجها، وابنها يرضي زوجته وأبيه معا مستغلاً تشابه الأسماء.

صارت مشكلة أفسدت فرحة أبي بالمولود، حتى يحسم جدى لأمي الأمر طلب من أبى تغيير اسم المولود ومنحه اسماً أخر. لكن جدى لأبى

اكتشف حلاً أيسر. أخرج من الصديري مصحفاً، فتحه على سورة يس، وطلب من أبي أن يقسم بألا يكذب، وأن ينطق باسم سمى المولود.

بعد تردد وبغضب أقسم أبي بأنه اختار اسم أبيه لكن أمه لم تصدقه، وإن تظاهرت بغير ذلك، فبعد شهرين توفى جدى لأمي فقالت جدتي لأبى إن ابنها كان كاذباً فلو سمى المولود على اسم جده لأبيه لمات هو وليس الجد الآخر. جدى لأبى صدق زوجته، فرح بنجاته من الموت لكنه خاصم ابنه أربعين يوماً لأنه كذب عليه وأقسم كاذبا.

كانت الحكاية غريبة لكنني عذرت أمي، ولم أخبر أحداً بأنى وعدت زوجتي أن تختار هي اسم المولود أياً كان جنسه.

***

"حينما حملت زوجتي لأول مرة، اتفقنا على أن أختار اسمه على أن تتولى هي أمر المولود الثاني. قلت أنها ستلد بنتاً وسأسميها آفاق.

ضحكت وقالت إنها ستضع ولداً يشبهني، لكنها وضعت أنثى، أسميتها آفاق، هوجمت بضراوة بسبب الاسم الذى بدا للأهل غريباً. رأوه غير لائق لمجرد إنه غير شائع.

لم تحتمل آفاق أن تكون سبباً للسخرية من أبيها، فغادرت الدنيا صباح يوم السبوع وبقى الغربال المزركش شاغراً حتى اليوم".

***

(ف)

لم تلد زوجتي عند الفجر بحسب ما توقعت جدتي، أيقظت مُحَّد لنخرج سوياً. عرض أن أبقى لأكون بجوار زوجتي. رفضت. لا أستطيع تحمل عذاب الانتظار المزدوج: خروج المولود ورجوع غريب.

قال مُحَّد:

– كل زملاء غريب يتوقعون وجوده فى أحد ثلاثة أماكن قسم الأزبكية، أو قسم قصر النيل، أو مديرية أمن القاهرة.

صمت مُحَّد قليلا ثم أضاف بأن قلبه يحدثه بأن غريب لم يصب بأذى، لذا يقترح ألا نذهب إلى المستشفيات.

كنت منهكا ويائسا، فلم أجادل، أعلنت عن موافقتي له بقولي:

– سنتبع قلبك، وتأكيدات من سألتهم، ونكتفي بالأماكن الثلاثة التي قالوا عنها.

ولما أخبر مُحَّد أبي بخطتنا، وافق بهز رأسه صامتا، ثم أردف:

– الأمر لله من قبل ومن بعد.

بينما سألت أمي:

– وإن لم تجدوه فى أحد هذه الأماكن؟

– تفاءلي يا أمي.

أعادت سؤالها:

– وإن لم تجدوه فى أحد هذه الأماكن؟

أجابها أبي واجماً:

– عندئذ لا يصبح أمامنا إلا انتظار رحمة ربنا

خرجت أداري دموعا انثالت رغما عني، وفى أذني صراخ زوجتي. تذكرت آفاق، وبكاء غريب. ضم جثمانها قبل أن ندفنها وصرخ فبكيت. نهره مُحَمَّد وحملها عنه إلى جوف القبر، فاحتضنني وهو يغالب دموعه.

***

(ق)

_ ماذا نقول لهم؟

اقترحت أن نؤجل الاتصال التليفوني لما بعد صلاة الجمعة، أعاد مُحَمَّد سؤاله فأفقت من شرودي، غادرنا مديرية أمن القاهرة إلى الشارع، قصدنا ضريح سيدنا الحسين، لم أزر مولاي منذ شهر رمضان قبل الماضي، عامان مرا، غريب كان معي، قال ونحن نتناول طعام أول سحور:

– شئ غريب حقا

– ما هو؟

– قدرتنا على خلق البهجة.

قلت باستغراب:

– من؟ نحن؟

قال مبتسما:

– نعم، نحن.

– كيف؟

– أنظر كيف حولنا ضريح الشهيد إلى مكان للنزهة والفرح، أعتقد لو كان الضريح فى بلد آخر لما أثار غير الحزن والرغبة فى البكاء.

لم يستقر غريب على هذا الرأي طويلاً، هو هكذا، يبدل آرائه وقناعاته بسهولة تبديله لجواربه كريهة الرائحة، دائماً لا يعرف الاستقرار على شيء أو فى مكان.

مرة كنا نشرب الشاي فى شرفتي ونسمع فيروز:

– إن ما سهرنا فى بيروت نسهر بالشام.

رددها مرات، سكت ثم عاد لترديدها، ثم قال بصوت مخنوق بالأسى:

– إن ما سهرنا فى بيروت نسهر بالشام، يعني سهرانين، سهرانين، فى بيروت أو فى دمشق أو في أي مكان، وما داموا جماعة ويصرون على السهر، فهم يصرون على البهجة. هم قوم يعرفون كيف يحيون أما نحن فنعرف جيداً كيف نموت. فنحن نسهر بمفردنا، ونسهر لنتألم ونتوجع ونشكو.

لم يصمت، اجتر حكايته مع عهد، ابنة جبلة، سافر إلى الشام ذات صيف برفقة زملاء، طالت سفرته من إبريل حتى بدايات سبتمبر، وعاد

بثلاث ورقات خضراوات من فئة المائة دولار، وجرح في القلب، وحكايات عن مدن بامتداد خريطة سوريا، جاب شوارعها مناديا على بضاعته، وعن بشر عرب وأكراد، أحب اللاذقية وريفها وشواطئها، وجبلة وقراها خصوصا بستان الباشا، يقول إن عهد هي أجمل زهرة في بستان الباشا، ثم يصمت، يتنهد ولا يزيد.

***

(ك)

كان الزحام شديداً، أحد المارة اصطدم بي. كدت أقع على الأرض لولا أن قبضت على يد مُحَمَّد الذي انحنى ليلتقط عكازي من الأرض. اعتذر الرجل بسرعة، وهو يواصل سيره أوتوماتيكيا، بدا لي وكأنه روبوت مهموم، سألت نفسي وهل يمكن للروبوت أن يعرف الهم؟، لم أجد جوابا فواصلت سيري وأنا أنظر فى الوجوه. أتأملها. كلها مهمومة يعلوها الصدأ.

يتعثر العكاز فى حصاة. يسندني مُحَمَّد. أضيق بالزحام. أشعر بالاختناق. منهكا أقف حيث أنا، لكن الزحام الشديد يجبرني على مواصلة المسير. فالجثث السائرة تحث الخطى، وإن اعترضت مسيرها بالوقوف سوف تدهسني. وبقي الشعور بالاختناق يلازمني حتى رأيت الضريح، ففاضت عيوني بالدموع.

قبض مُحَمَّد على يدي، ربتها قائلا:

– لماذا نلوم أمك إذن؟

كفكفت الدمع، وجلست في رحاب الحسين أسمع الخطيب، بعد الصلاة لم أقو على النهوض، وددت البقاء حتى العصر لكن مُحَمَّد رفض فقفلنا راجعين. نحمل هم لقاء الأم، وما قد نفعله في الغد.

مرة أخرى نعود بدون غريب.

***

(ل)

قلت لمحمد:

– إن رزقني الله بأنثى سأسميها أيضاً آفاق.

بسرعة أتاني رده الصادم.

– طبعا لتعاند الموت الذى اختطف أختها يوم السبوع، لا تعاند الموت يا أخي، ولا تتحداه فلن تهزمه.

– لا ، ليس عنادا، بل أظنها ستكون البشارة.

***

(م)

آفاق عاندتني ولم تجئ.

وضعت أمها ذكراً. أسماه أبي يحيى، فقد أتته البشارة وهو يسمع القرآن: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة"، أخذت يحيى بين ذراعي. قبلته في جبهته، ابتسمت له لكن سرعان ما غاضت الابتسامة. بللت وجهه بدموعي خطرت لي سالومي، وهي تطلب رأسه.

***

(ن)

جاء يوم السبت، لم يعد غريب، ولم نجد ما نفعله.

كان لابد أن نفعل شيئاً فذهبنا إلى مركز الجيزة لعل خبراً أتاهم عن غريب، لم يقم الصول من مكانه إلا بعد أن دس مُحَمَّد فى يده الخمسة جنيهات صحيحة.

دسها الصول فى جيبه بسرعة، ونهض بتثاقل. فتح دفتره وراح يقلب الصفحات ثم توقف عند الصفحة الأخيرة، تمتم باسم غريب مرات ثم توقف، أشار بإبهامه إلى السطر الأخير، قال بفرح مصطنع:

– أخيرا يا غريب أفندي، دوختنا معك، غريب أحمد منصور، اسمه موجود، ها هو..

صحنا بفرح :

– حقا اسمه موجود الحمد لله.

لم يرفع إصبعه عن الاسم وكأنه يخشى أن يغادر الصفحة، أعاد قراءة الاسم وهو يضيف:

– جاءنا صباح اليوم مع الوارد الجديد.

سألته عن المكان الذى صدره، فقال:

_ جاءنا بسيارة الترحيلات من قسم شرطة الوراق.

سمعته، فتذكرت على الفور الضابط ذو العينين الخضراوين، الجالس على كرسيه فى مدخل المركز، يضع ساقاً فوق أخرى، ويرشف القهوة. رمقني أنا وعنتر ثم نفى وجود غريب عنده.

طلبنا من الصول أن يرينا غريبا لكنه طلب الحلاوة أولاً. حصل على خمسة جنيهات ثانية، فسبقنا إلى غرفة الحجز، فتحها فرأينا غريب يجلس القرفصاء. رآنا فنهض وهم بالخروج إلينا لكن الصول دفعه بغلظة مفاجئة، وأغلق الباب.

سألناه عن تهمة غريب فقال:

– أخذوه تحري

– يعنى لم يوجه له اتهام

– وهل قتل قتيلاً؟

– نريد أن نأخذه

– بسيطة، اذهبا للضابط واضمناه.

رفض الضابط أن نضمن أخانا، قال إنه لا يستطيع أن يخرجه قبل عرضه على النيابة المسائية. معنى ذلك أن يظل غريب هنا حتى منتصف الليل، وقد يبيت ليلة أخرى.

سألنا الصول النصيحة، فأشار بأن نقصد المعلم عاشور، فالضابط لا يرد له كلمة وهو الوحيد القادر على إخراج غريب من الحجز. هرعنا إلى المعلم عاشور. لم يخذلنا الرجل، نادته زوجته فغادر حجرته وهو يستكمل لبس جلبابه، أحكم العمة فوق رأسه وهو يسمع الحكاية، أسدل العباءة الجوخ على كتفيه وهو طلب من زوجته إحضار مفاتيح السيارة.

وفي الطريق عاتبنا لأننا لم نكن من مؤيديه فى الانتخابات السابقة وحتى لم نهنئه بالنجاح. وأيضا لأننا تأخرنا في طلب مساعدته. قبل أن يوقف السيارة خارج المركز أكد على عدم زعله مننا، نحن على الأقل كنا واضحين ولم نخدعه كما فعل البعض ممن خانوه، أكلوا طعامه وأخذوا فلوسه ثم انتخبوا خصمه.

غادرنا السيارة ونحن نعلن مبايعتنا المسبقة له في الانتخابات القادمة. سبقنا داخلاً إلى المركز. رأيناه يدخل حجرة المأمور دون استئذان، أوقفنا الشرطي الواقف ببابها، أبقانا في الخارج رأينا المأمور يعانق المعلم عاشور ثم ينادى الشرطي.

سمعناه يطلب إحضار القهوة بسرعة مؤكدا على أن يكون وشها كثيفا، رأيناه يقرب كرسيا من مكتبه فيجلس المعلم. دقائق قلائل ويرجع الشرطي بصينية القهوة. المأمور يسمع الحكاية، يأمر الشرطي فيخرج،

يغيب لدقيقتين ثم يعود، ثوان ويتبعه شرطي ثان، ساحباً غريب.

ولما فرغ فنجان القهوة نهض المعلم عاشور. صافح المأمور، ثم خرج لنا بغريب الذي اغرورقت عيناه بالدموع.

***

(هـ)

فى السيارة بكى غريب، لامنا لأننا لم نفعل له شيئاً طيلة هذه الأيام الثلاثة العصيبة. قبله أعاد المعلم عاشور لومنا لأننا لم نلجأ له منذ اليوم الأول. قال إنه كان يستطيع إنهاء المشكلة بالتليفون. ضاحكا وعده مُحَمّد بأن نفعل ذلك فى المرة القادمة.

توقفت السيارة أمام بابنا. قفز غريب. وعلت الزغاريد. تجمع الجيران مهنئين. ولوح المعلم عاشور بيده ليحيي الواقفين قبل أن ينطلق بسيارته مبتعدا.

***

(و)

تحلقنا حول غريب. أمي ضمته إلى صدرها وعاودت البكاء. طالبتنا بأن ننتخب المعلم عاشور. قال أبي إنه لا يعلم سر الثراء المفاجئ للرجل الذى كان معدماً قبل عشر سنوات. قلت لعل بغلة العرش زارته، ذكرتنا أمي بالمعروف الذى أسداه لنا الرجل، لنكف عن الخوض في سيرته.

انشغلنا عن سيرته بسؤالنا غريبا عم حدث؟ سمعناه يجيب:

ــ يوم الأربعاء، وعلى غير العادة نفدت البضاعة مبكراً. غادرت السوق قبل آذان الظهر. لسوء حظى تأخر الأتوبيس وعند محطة الأتوبيس توقف الضابط ليملأ سيارته، يملأها بأي شيء، يملأها بشرا لا يراهم بشرا.

– ألم تكن معك بطاقتك؟

–كلنا كانت معنا البطاقات. أبرزناها له لكنه أصر على القبض علينا، دونما سبب، قال اشتباه، ولم يسجل أسمائنا فى دفتر الأحوال، ولم يعرضنا على النيابة.

خلعت أمي طرحتها. رفعت يديها للسماء ثم تضرعت، دعت الخالق القادر بأن يحرق قلب أمه عليه، غريب الذي كان يتجنب النظر إليها، كان يجلس القرفصاء، وهو يواصل حكاياته عن تغريبة الأيام الثلاثة، وضحك هو يحكى عن رجل عجوز. ارتابوا فى الكيس البلاستيكي الأسود الذى يحمله. فتشه المخبرون فوجدوا به عدة لفات قمر الدين. أخذوها فثار وطالب الضابط أن يفرج عنه ويرد له قمر الدين. ظل يطالب بذلك حتى جاءته نوبة الربو مساء الجمعة. خشى الضابط أن يموت العجوز فى الحجز فأفرج عنه، ثم قام بترحيل الباقين صباح السبت.

***

(ى)

كان المساء مناسباً للاحتفال بغريب ويحيى معاً، ذبحت أمي ذكر البط المزغط الذى ادخرته لإفطار أول يوم من رمضان. تسميه يوم الرفرافة. يضحك غريب ويسألها عن سر التسمية. فتقول:

– كل المسلمين يذبحون البط المزغط فى أول أيام رمضان، والبط المذبوح يرفرف فى كل البيوت، من أيام جدي وستي وأول إفطار في رمضان يجب أن يكون بطا.

ضحكنا وقال أبى:

– ما فرقتش كتير، كلها نهار واحد ما بين أول سحور وأول إفطار.

ضحكنا، وجلسنا فى انتظار اكتمال نضج ذكر البط، كان غريب يحمل يحيى، يهدهده، يعيد حكاية الرجل العجوز الذى سلبه المخبرون قمر الدين. تقترح أمي أن يبحث عن عمل آخر يصونه من المرمطة في الأسواق، ويطالبه محمد بأن يبحث عن وظيفة بدلا من ذلك العمل الذى يعرضه لمضايقات الشرطة وكأنه قاتل أو لص، ويفاجئنا غريب، يعلن عن قراره بالسفر إلى أي مكان.

نصحته ألا تكون قراراته ردود أفعال، ونصحنا أبى أن نصمت. استعجل الطعام، وقال لمحمد:

– افتح يا بني التليفزيون نشوف المسحراتي ولا أي حاجة؟

بكى يحيى فحمله غريب إلى أمه، رصت زوجة أخي الأطباق على

الطبلية فتحلقنا حولها، أوليت ظهري للفيلم. سبق أن شاهدته فى السينما وكان غريب معي، يومها خرج من السينما وهو يردد بأسى مع المطرب:

– هلفوت ومالكش لزمة وماحدش دارى بيكا

جلست أمي إلى جوار غريب. وضعت أمامه ذكر البط. وهى تقسم عليه بأن يأكله بأكمله. ضحكنا. تذكر مُحَّمد أن يسال غريب عن مصير قمر الدين. هل استرده صاحبه أم تركه للمخبرين؟ نهرته أمي:

_ لا تذكره بما حدث. سيبه يأكل، بالله عليك

عدنا نضحك لكن ضحكتي غارت لما انطلق صوت المغنى فى الفيلم يسألني عن معنى كلمة وطن، ولما لم أعطه جوابا، راح هو يقترح:

– يعني أرض؟

حدود؟

مكان؟

ولا حالة م الشجن؟

ولا حالة م الشجن؟

أبو النمرس

من١٠– ٥ – ١٩٩٩

إلى ١٩– ٣ – ٢٠٠٠

رؤى نقدية في حالة شجن

الغربي عمران

خالد مُحَّد عبدالغني

رشا الفوال

مُحَّد المسعودي

ممدوح فرّاج النّابي

حالة شجن.. سردية الوقوف بين شفق الحلم وغسق الظلام

الروائي والناقد اليمني الغربي عمران

بين يدي رواية قاهرية بامتياز. رواية تصور المجتمع المصري في حالات مختلفة "حالة شجن" للصديق المبدع أحمد رجب شلتوت. وهي رواية تناقش محورا مهما تعاني منه المجتمعات البشرية، وعلى وجه الخصوص أقطارنا العربية. تفشي البطالة واستشراء الفساد. الكاتب أختار ملعب أحداثه "أبي النمرس" بالقرب من القاهرة أو على مشارف أطرافها. وهي بيئة اجتماعية يعرف خباياها، ليرصد بعين الفنان تلك الآفات التي تكالب حتى على حملة الشهادات الجامعية. كما تتناول الرواية ثيمات أخرى، منها: الهجرة.. المحسوبية، بطش الشرطة، تدهور الوعي بين أوساط المجتمع، وضع المرأة المتردي. تدهور التعليم والصحة... الخ..

ترسم رواية "حالة شجن" ملامح مجتمع يئن من أوضاع قاسية، فالبطالة تطحن الأكثرية. وما ينتج عنها تداعيات في الأوساط الاجتماعية، العشوائية، التفكك الأسري، تفشي البلطجة، ثراء طبقة على حساب عامة الشعب، الصراعات الاجتماعي على بقايا الموائد.

يبدأ شلتوت روايته بمشهد حواري بين أم وولديها جمال ومُحَمَّد، صابّة

جام غضبها على إهمالهما للروابط الأسرية، وعدم رعايتهما لشقيقاتها. تدعمها في ذلك والدتها. أثناء ذلك النقاش، تلحظ الأم توغل الليل دون عودة ابنها الأصغر "غريب". لنعرف بأن غريب يعمل بائعا متجولاً حاملا كرتون سلعته من سوق إلى آخر، ليتجه مسار الحوار بين الأم وابنيها نحو قلقها على الغائب. غريب العائد من السعودية بعد سنوات من الغربة، عاد بسبب تعنت الكفيل واستغلاله له، لكنه بعد عودته لم يجد عملا غير التجوال بكرتون الزجاج يحمله من الصباح الباكر وحتى أول الليل. فيعود

باسطا بين يدي والدته جنيهات قليلة وحكايات كثيرة يجمعها من الأرصفة وبين الزحام.

ينتقل السرد لما يتعرض له الباعة الجائلون من قبل رجال الشرطة من ملاحقات ومصادرة سلعهم البسيطة. وزج بعضهم في التوقيف. واصفا هيئة غريب حاملا كرتون رص بداخله كؤوسا زجاجية، مجسدا لشباب كثر نراهم يجولون بما يحملون، عارضين سلعهم، مروجين بكلمات بسيطة لاستمالة مشتر محتمل، على عربات النقل العام والمحطات العامة.

ثم ينتقل الكاتب بعد ذلك بالمتلقي، ليتعرف على رب الأسرة "أحمد منصور" رجل مسن، تقاعد بعد مشاركته متطوعا في الجيش الذي خاض حروب مصر من الاستنزاف ٦٧ إلى العبور ٧٣. ثم ينتقل مرة أخرى

شارحا تفاصيل من حياة "غريب" الخارج من خطب فتاة فاشلة، بعد مرور سنة ونصف، لم يستطع إتمام زواجه لضيق ما في اليد.

تلك النقلات السردية لم تأت خارج السياق، بل مثلت قفزات فنية

محسوبة بدقة، وبها يتعرف المتلقي ويرى من عدة زوايا وضع مجتمع يعيش على الهاوية. يلهث كل أفراده ليس من أجل ترف الحياة، بل لتوفير لقمة عيش بسيطة.

مع الفجر ينطلق جمال وشقيقه مُحَمَّد، كل في اتجاه بحثا عن غريب. بينما كان كل من في البيت في ترقب، يساندهم الجيران بالأماني الطيبة. ويستمر الكاتب بنقلاته الرشيقة يضفر حكايات أفراد تلك الأسرة بمهارة دون انقطاع أي خيط. يرصد تنقل "مُحَمَّد وجمال" بين أقسام الشرطة والمستشفيات.

لكنهما يعودان دون أن يجدا غريب. أثناء سرد بحثهم تذهب بجمال ذكرياتها إلى سنوات الدراسة الجامعية، يرى زميل الكلية "مرعي" ذلك الشاب الحالم والمتمرد، وقد تماثل معه في حب الاطلاع بقراءة الكتب. مرعي الذي كان يتوقع يوما أن يجده وقد أصبح ذا شأن في مجتمعه، لكنه يصدم حين يلتقيه أثناء بحثه عن أخيه، ولم يعد من ذلك المتمرد إلا بقايا كائن محطم. يستمع إليه وهو يشكو الزمن: زوجني أبي بزوجة أخي المتوفي، "فمن يرعى أبناء أخوك.. هل تتركهم للغريب". ومن يومها أعيش لأرعى.

بعد عودة الأخوين من بحثهم، تعددت الشكوك حول اختفاء غريب. فمنهم يقول إنه في قبضة البوليس. ومنهم من يتهم عائلة خطيبة غريب السابقة باختطافه. وآخرون يرجحون أنه لقي حتفه في مشاجرة كثيرا ما تحدث بين تجار الأرصفة. سأل الأخوين بعض زملاء مهنة غريب. كما لجأوا لأصحاب نفوذ، لتنتهي الرواية بالعثور عليه في أحد الأقسام التي

سبق وأن زارها جمال، إلا أن القائمين عليها لم يسمحوا له بزيارة غرفة التوقيف أو يكلفوا أنفسهم بالبحث في سجلات الوارد. وقد تعاملوا معه باستهتار، وكأن كل قادم إليهم لا يستحق حتى سماع تساؤلاته.

هذه الرواية تفضح ضياع الحقوق، والاستهتار بكرامة الإنسان، من قبل رجال الشرطة. كما تفضح أساليب التعامل مع القُصر، والتصرف غير القانوني مع أي مواطن يصل إليهم.

وبعد أن وجدوا غريبا. يرفض مأمور القسم إطلاق سراحه، بل وهددهم إن لم ينصرفوا بحجزهم، وبلجوئهم إلى أحد وجهاء المنطقة، تم إطلاقه دون قيد أو شرط. احتراماً للوجيه.

إن فساد أقسام الشرطة ظاهرة مستوطنة. صوّر لونها الكاتب بتفاصيل مخيفة، فبمجرد اقتراب جمال من بوابة تلك الأقسام ليسأل حتى يتلقى

سيلا من كلمات الصدود واللامبالاة، رغم إعاقة أحد ساقيه. وقد أتكأ على عكاز يساعده على السير. ليرى ما يعتمل على قفى صبيان لا يعرف جرمهم، من خطوا إلى داخل تلك الأقسام.

عم خلف في قسم الجيزة، عم بدوي في المشرحة، عم حنفي في قسم القناطر، المعلم عاشور في الوراق، تلك الأسماء ينصح الاستعانة بها أثناء البحث. ومعظمهم يقبعون على هامش تلك الأقسام، حين يشير على من يسأل الحراسة أن يذهبوا إليهم ليسألهم حاجتهم. وكأن الشرطة يعيشون في أبراج خارج نطاق أقسامهم، مشيرين على من يسأل بترفع إلى العم

"....". وهكذا لكل قسم عم. كائن طيب يسعد لمساعدة غيره. يجيب عن استفساراتهم بطيب خاطر. وكأن الطيبة مذمة لا يجب أن يتحلّى بها عسكر تلك الأقسام.

تلك الشخصيات يشكلها الكاتب بعيني وإحساس مبدع، فجمال الأخ الأكبر معاق يتكئ على عكاز، مثقف وأكثر وعيا بين أبناء محيطه، هكذا بدأ بتعامله وحواراته وذكرياته في الجامعة، خاصة مع زميله "مرعي" الذي كان يماثله وعيا وثقافة وتطلعا لغد أكثر إشراقا.

والأب أحمد منصور رجل وطني. قدم أجمل سنوات عمره كمتطوع في الجيش وشارك في جميع حروب مصر، ليتحول في سني تقاعده إلى شخص ساخط ومتذمر من أوضاع البؤس والحاجة.

الأم.. الرامزة إلى مصر بحرصها على أفراد أسرتها، وحثهم على التكاتف والتجمع في وجه الشدائد. تبكي لأقل شعور بالغبن، وتنشر الفرح فيمن حولها لأبسط مناسبة مثيرة للبهجة بعاطفتها وحبها غير المنقوص.

صور شتى أجاد الكاتب تشكيلها. منها لحظات تنقل جمال وابن حيهم عنتر من قسم إلى آخر ومن مستشفى إلى مستشفى بحثا عن غريب. ووصف التفاصيل الصغيرة من حوارات إلى عنف غير مبرر. حتى مشهد عودتهم بدون غريب ليتقاطر أبناء الجيران من نساء ورجال لمواساتهم. عبارات عطوفة تطمن الأم من أن الله سيعيده لها. ثم يوم عودة جمال ومُحَّد بشقيقهم غريب ليتحول بيتهم رغم ضيق الحال إلى مهرجان فرح بتوافد

الجميع للمباركة. هي لوحات من السعادة والفرح يرسمها المجتمع ليعبر عن تعاضده.

الرواية جسدت الظلم الذي تمارسه أجهزة الأمن على المواطن، خاصة أبناء الطبقة الدنيا.. وكأن فقرهم تهمة. وضيق ما في اليد عار وإدانة. كما جسدت تماسك الأسرة المصرية، وحالة الرفض للأوضاع، وكمون بذور الثورة في النفوس على كل ما هو شائن. إضافة إلى تعلق الجميع بفجر قد يبزغ في أي لحظة بالغد والحرية.

رواية شلتوت التي تستفز القارئ لأوضاع شائنة رسمها بعين الفنان. تلك الأوضاع لا تقتصر على المجتمع المصري، بل هي أوضاع عامة تشترك فيها أقطارنا العربية ودول أخرى حول العالم بدساتيرها المنقوصة التي فصلت على مقاس طبقات أو فئات وشخاص أو جماعات. فلا دستور من تلك الدساتير يحمي كرامة المواطن، أو يحفظ له حقوقه. ولا تجرم حضور الجماعات الدينية في السياسة. ولا توجد مواد تمنع تكوين أحزاب على أسس دينية. فدساتيرنا للزينة لا تساوي بين المواطنين في الحقوق والواجبات، ولا تحمي الحريات والتنوع والسلم الاجتماعي.

هذه الرواية رغم بساطة منطق شخصياتها، وتلك الاحتياجات العادية التي يحلمون بتحقيقها، إلا أن أنها موئل رفض مستقبلي، وجمر تحت الرماد لتغيير كل شيء إلى الأفضل، لنصل إلى انتخابات بقواعد سليمة، فلا تطاحن بين العسكر والجماعات الدينية، بل نظام مدني عموده المواطن على أساس حقوق وواجبات متساوية.

تنتهي الرواية؛ وقد قرر غريب أن يهاجر مرة أخرى خارج مصر. فكرة الهجرة فكرة تقارب للانتحار. فكثيرا ما ينتهي من يركب البحر في بطون الأسماك. لكن دعونا نتخيل وقد فُتحت أبواب الهجرة الآمنة، فهل سنجد من يبقى في أقطارنا العربية. أرى الجميع يهاجر إلى الدول الديمقراطيات. ولن يبقى أحد خاصة من الشباب. أتخيل أن أوطاننا ستفرغ. سيرحل الجميع إلى أوطان الحقوق والحريات. ومنها الحق في العمل والرعاية. فما بالنا بالتعليم الحقيقي، الصحة،... الخ.

إن حالة شجن رواية تقودنا إلى أن نفكر ونفكر كثيرا في أوضاعنا، في أزمتنا، في غدنا، في رفضنا لكل ما يسيء إلى إنسانيتنا. أم أننا الحلقة المفقودة في سلسلة داروين. سنظل نحلم دون أن نخطو خطوة واحدة نحو تحقيق إنسانيتنا؟

الاغتراب في نوفيلا "حالة شجن"

د. خالد محمد عبدالغني

تعتبر النوفيلا سرد قصير محكم البناء، واقعي أو تهكمي النبرة في الغالب، نشأت في إيطاليا في العصور الوسطى وكانت ترتكز على أحداث محلية ذات طبيعة هزلية أو سياسية أو عاطفية، غير أننا ولسوء الحظ نستخدم مصطلحات النوفيلّا، والنوفيلّيت، والرواية القصيرة بمعنى واحد، وهذا خلط سيئ؛ لأن الرواية القصيرة نسخة مصغَّرة من النوع القصصي المسمَّى رواية، بينما النوفيلّا شكل أدبي مختلف، يتماثل عرَضًا مع الرواية القصيرة في طولها فحسب. ولأننا نفتقر إلى مصطلح مستقرّ، فإننا نستخدم مصطلحات متعددة وغامضة نشير بها إلى هذا الشكل الأدبي.

وعلى ذلك فحالة شجن لأحمد رجب شلتوت في رأيينا نوفيلا واقعية سوداوية وتهكمية في كثير من أجزائها تكشف عن اغتراب أبطالها عن الواقع والمجتمع، ففيها يحكي المؤلف عن شاب أنهى تعليمه وخدمته العسكرية ولم يجد عملا فسافر لفترة قصيرة إلى الخليج ولم يحتمل معاملة الكفيل له فعاد لمصر، واضطر لأن يعمل بائعا متجولا يجوب الأسواق حاملا «كرتونة» تحمل بضاعته الرخيصة.

عمل شاق يستهلكه ويعرضه لمخاطر أمنية باعتبار من يمارسون مثل هذا العمل من المشبوهين الذين تتبعهم الداخلية ، وتصفهم وسائل الإعلام بأنهم جماعة من المتسولين، ويحدث أن يخلف موعد رجوعه اليومي، فتوقع أهله أن تكون الشرطة قبضت عليه، فالشرطة تقصد الأسواق، وكثيراً ما تقبض على الباعة الجائلين. فيهرع شقيقاه في اليوم التالي للبحث عنه في كل الأماكن التي شهدت أسواقا في اليوم الذي اختفى فيه، يبحثان في

الأسواق والمستشفيات وأقسام الشرطة ولا يجدان أثرا له، حتى يعود داخل سيارة ترحيلات إلى قسم الشرطة الذي يتبعونه، ولا يستطيعان ضمانه وإخراجه إلا بوساطة نائب مجلس الشعب عن دائرتهم.

فالأشخاص داخل النوفيلا مأزومين سواء من تخرج من الجامعة ولم يجد عملا، أو من يعمل وفي نفس الوقت من المرتشين، أو من الذين لا تكفي رواتبهم لسد حاجتهم أو الزوجات الخائنات أو الأصدقاء غير المتحققين نفسيا واجتماعيا كمرعي، أو الجشعين كالسائق، أو الأبطال المنسحقين كالأب الذي قضى شبابه في الجيش هو وأصدقائه وصار حالهم سيئا ولا يجدون ما يسترون به أسرهم، حتى أولئك الصبية من جماعة التبليغ والدعوة الذين يمتلكون فهمًا منقوصًا ومشوهًا عن الإسلام والدعوة إليه وهي تلك الجماعة الوافدة إلينا من دول شرق أسيا فكيف وجدت لها أرضًا خصبة في هذا الوطن بهذه السهولة ويشير المؤلف إلى إمكانية دعم الدولة لذلك الفكر ما داموا لا يشتغلون بالسياسة فلا خوف منهم.

وكدلالة على واقعية النوفيلا فقد خبرت الأماكن التي توجد في النوفيلا وسكنت بعضها وزرت البعض الآخر من قليوب للقناطر للمناشي لمراكز الجيزة والمنوفية وبهتيم، إنها القرى وما بها من عادات وتقاليد أحيانا ما لم يكن غالبا معطلة فها هو الابن يتحدث مع أمه أن أخوته البنات لسن في حاجة لهداية مالية في المواسم الدينية وليس في وسعهم تلبية تلك الحاجات فيشير السارد إلى ذلك «كعادة إهداء البنات المتزوجات هدايا عينية غالبا تكون من المأكولات في المناسبات الدينية الإسلامية كشهر رجب وشعبان ورمضان وعيدي الفطر والأضحى، وكذلك عادة الإفطار في أول أيام رمضان بلحم طير، لذا يسمونه بيوم الرفرافة، في إشارة إلى رفرفة الطيور الذبيحة.

وتظهر في حالة شجن اللغة المكثفة والرمزية بالرغم من واقعية الأحداث والأشخاص والقضايا المطروحة ونستدل على ذلك بتلك الجملة المزدوجة الدلالة «ما غريب إلا الشيطان» جملة قالها غريب وكأنها مفتاح شخصيته فهو ذلك الشاب الثلاثيني الذي يسرق المتعة مع زوجة صديق له كما يسرقها مع أم صديقه الآخر، هو باحث عن المتعة وفقط لا يهمه إلا أن تكون يسيرة وبلا ثمن، هذه الجملة الملغزة هل قُصِدَ بها أن غريبا هو الشيطان نفسه، وليس كما يقول المثل الدارج في ثقافتنا الشعبية أن الغريب في علاقتنا هو الشيطان وأن القادم للبيت من أهله وليس بغريب عنهم، وغريب هو بطل النوفيلا الغائب الحاضر في طولها فجمال الأخ الأكبر يبحث عن غريب الذي يعمل بائع متجول بالأسواق وغاب عن البيت، ولم يعد ليكتشف جمال أن أخاه كان محتجزا بقسم الشرطة، وكأن

البطل التراجيدي المأزوم غريب في هذا الوطن ليكتسب الاسم نفسه دلالة أخرى على حالته النفسية من حيث الغرابة سواء في السلوك الشاذ عن أفراد أسرته أو الغريب بمعنى الاغتراب والعزلة/ المغترب عن المجتمع بسبب ما يعانيه من أزمات فأصبح مغتربا بالمعنى النفسي ولهؤلاء صفات نفسية ظهرت في حديثه مع أخيه عند تبريره الخيانة وسرقة المتعة وهي صفات الشعور بالدونية واليأس ونقص الهمة وقلة الدافعية وتشيؤ المشاعر والمعاني.

كما تماهت أزمات الوطن كالفساد والرشوة والفقر مع أزمات أصحاب مشاعر الاغتراب كما لدى بطل النوفيلا حتى أن المؤلف يقرر من البداية أنها نوفيلا واقعية سوداوية منذ العنوان حالة شجن أي حالة حزن ووجد وكآبة، ثم في الإهداء يقول «إلى فجر أثِق فى طلوعه رغم سطوة العتمة»، يقرر لنا أن الوطن مظلم ولكن الأمل موجود وتأتي إشارة لمكان وتاريخ كتابة النوفيلا ليقول «أبو النمرس من ١٠– ٥ – ١٩٩٩ إلى ١٩– ٣ – ٢٠٠٠ « لكي يعبر عن أن الوطن في تلك الفترة يعاني من تلك الأزمات وليشير إلى منطقة شديدة الالتصاق بتلك المشكلات.

ثم يعقبه بأبيات شعرية تؤدي نفس المهام وتدعم فكرة أزمات الوطن فيقول نقلا عن أحمد عبدالمعطي حجازي « أرى بلداً غريباً/ لم أشاهد مثله منفى/ ولا وطنـا / ولا أعلم كيف اتخذته أمة سكنا». ليتأكد لدينا فكرة الاغتراب لدى بطل النوفيلا حتى أن حجازي نفسي يؤكد ذلك بقوله «بلدا غريبا». ويذكر الرواي كيف أنه قرأ واهتم وتبادل رواية «مائة عام من العزلة « لماركيز وفي عنوان تلك الرواية أيضا ما يدل على الوحدة

والاغتراب وأليست مفردة العزلة دالة بذاتها على تلك الفكرة المركزية داخل النوفيلا؟

ونلاحظ ذلك التماهي بين المؤلف وجمال الذي يدرس الاقتصاد والتجارة ويستشهد بمقولات اقتصادية كثيرة خلال النوفيلا وبين المؤلف الذي درس الاقتصاد والتجارة أيضا في جامعة القاهرة ، وما حدث لهما معا من تكوين ثقافي وفكري واجتماعي أيام الجامعة ويقول الراوي الذي ينقل عن كتاب «الدرب الأخر» لهرناندو دي سوتو، مقاطع يرصد فيها ميلاد التجارة غير الرسمية، التى تجرى أساساً فى الشوارع حيث تعرف بالبيع المتجول، إذ بدأت الأسواق غير الرسمية عندما سعى الباعة العاملون فى الشوارع إلى وضع حد لحالة عدم الأمان التي يعملون فيها، فالمؤسسات الرسمية فقدت مصداقيتها حين كفت عن أن توفر الوسائل اللازمة لحكم المجتمع والحياة فيه» ليصبح المؤلف هو جمال وهنا يتقاطع الذاتي بالموضوعي والسيرة الذاتية بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي تدور فيه النوفيلا.

قدرية الصراع وأبعاد الاغتراب في رواية حالة شجن

د. رشا الفوال

أبعاد الاغتراب ومكابدة الأهواء: *

على افتراض أن صورة (الأهواء) مقابلة لصورة (الحكمة)؛ فقد أخضع اليونان (الأهواء) إلى عدة تصنيفات منها الأشجان، الخشية، الرغبة، اللذة؛ فالهوى يعني مجازًا الفراغ، وتعني الأهواء «ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات»؛ فمكابدة الأهواء بداية من العنوان "حالة شجن" في رواية أحمد رجب شلتوت الصادرة عام ٢٠١٩، تمثل خطابًا غير رسمي، يضعنا أمام الاغتراب بين الذاتي والاجتماعي، ولأن بطل الرواية، هو من يتجنب المجتمع، جاء معنى الغربة حاملًا مفهوم (التوحد) أي تموضع الذات في ذاتها؛ فالغربة تدل على أمرين أحدهما مقبول والآخر مرذول، وهذا الازدواج يعبر عن الواقع الذي يحفل بشتى ألوان التناقض.

ولأن من أسباب الاغتراب النفسية الصراع بين الدوافع والرغبات المتعارضة، والحاجات التي لا يمكن إشباعها، والإحباط الذي يرتبط بالشعور بالعجز؛ فقد يتضمن الاغتراب شعور الإنسان بأنه فقد هويته وأنه لا يملك مصيره، في القراءة الحالية للرواية، نهتم بمحاولة سبر غور أزمة

(سلب الحرية) وما يعنيه من خضوع الفرد، وبالتالي خضوع مجموع الأفراد حوله، و(سلب المعرفة) وما يعنيه من غياب معرفته بأهدافه؛ نجد أنفسنا في مواجهة أبعاد الاغتراب، التي تمثلت في: الشعور بالعجز، الذي يعني عدم قدرة الإنسان على قول لا للآخر، فها هو «غريب» بطل الرواية لم يستطع قول لا لأخيه الأكبر المُعاق، عندما نصحه بالعودة إلى مصر، أضف إلى ذلك الشعور بالضعف والمهانة، «كان غريب دائم الشكوى من إذلال الكفيل له» الاستلاب في هذه الحالة يُعد أحد أشكال الاغتراب؛ فالمغترب لديه توقع منخفض لإمكانياته، وأهدافه الاجتماعية غير واضحة.

لا غرابة إذن في أن يردد «غريب» بعد خروجه من السينما «هلفوت ومالكش لازمة» و(اللامعيارية) الناجمة عن غياب النسق المنظم للمعايير الاجتماعية، والإحساس بـ(العزلة الاجتماعية) و(الاغتراب عن الذات) الذي يعني اللامبالاة، فغريب عندما سألته زينات عن سبب عدم سفره مع ابنها قال لها «لا أحب شغل المحافظات، لا أحب الغربة».

و(التمرد) و(الرفض) الذي يعتبر من أشكال اغتراب الإنسان؛ إذ يرى التحليل النفسي أن الاغتراب يعني الصراع بين مكونات الشخصية، ويرجع ذلك إلى خبرات الطفولة، حيث إفراط الأبوين أو أحدهما في القلق، «كان الأب حزينًا ومرهقًا، يدخن بشراهة، والأم تبكي والنسوة يواسينها»؛ فاغتراب الإنسان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتجاهل المجتمع، أو نبذه أو الوصاية عليه، هذا ويعتبر الإنسان مغتربًا، ما لم ينعم بالحرية الحقيقية التي تتحقق بالاندماج بين المصالح الخاصة والعامة.

رصدت الرواية أيضًا (الاغتراب السياسي) الناتج عن شعور الإنسان بأنه ليس جزءًا من العملية السياسية، وأن صانعي القرارات السياسية لا يضعون له اعتبارًا؛ فالإنسان الذي لم تُحدد هويته بعد يُعد مغتربًا لأنه يفتقد الإحساس بالأمن، وتناقش الرواية أزمة فرض الإرادة على الفئات الضعيفة، وصولًا إلى درجة من تفسخ العلاقات الاجتماعية، وكيف أن الهوية ليست مسألة شخصية فقط؛ إذ يجب أن تُعاش في العالم عبر الحوار مع الآخرين؛ فها هو «المعلم عاشور» عاتب الأخوة في رحلة بحثهم عن «غريب» لأنهم لم يكونوا من مؤيديه في الانتخابات السابقة.

اهتم الكاتب بمحاولة إزالة الوهم من خلال اللجوء إلى كشف بواطن النفوس، هذا الأصل الدرامي للذات هو الدافع إلى تلك الغربة، فانفصال الأنا من جهة أهوائها ونقلها إلى منطق الإحالات، يسهل التحكم في ذهنيتها ونفسيتها.

* التعارض بين الذات واللاذات:

على افتراض أن تنميط النفس داخل الجسد يعتبر محاولة لإعادة الاتزان، فالتعارض بين (الذات) و(اللاذات) يمنع الإنسان عن الانشغال بمواجهة الصراع، ويدفعه لاتباع آلية الصمت، والشعور بالفشل في تحقيق الطموحات الذي غالبًا ما يؤدي إلى سوء التوافق النفسي؛ فمحاصرة (الغريب) ومنعه من الانطلاق في العالم الرحب، وضعتنا أمام جدلية الاستقلال/ الاندماج؛ فمن خلال الحاجة إلى الانتماء إلى جماعة سيكولوجية) يشعر الإنسان بالاستقلال الذي يحدد هويته؛ لذلك كان

(انشطار الانفعالات) ما بين إيجابي طيب ومثالي منزه، وسلبي خبيث يؤسس لحالة هدر الداخل والخارج معًا. كما أن قدرية الصراع بين الأوامر والعصيان، كشفت سمات شخصيات الرواية وتأثرهم بالواقع المكاني وما يزخر به من علاقات، بين رغبات الروح والجسد، من خلال التركيز على أماكن الفقر الاجتماعي ورغبة الإنسان في الخلاص، وما ينتج عنه من إحساس بالغربة والتشتت، (الكبت) بالمعنى الفرويدي.

هُنا يُعد أحد أبرز حالات انشطار الذات، حيث يعيش الإنسان على مستويين نفسيين، المستوى الواعي الذي يتصف بالمقبولية الاجتماعية والمستوى اللاواعي الذي يتضمن المكبوتات التي تهدد التوازن النفسي، وتثير درجات عالية من القلق، فعندما سأل مُحَّمد بطل الرواية «غريب» عن إقامته ليلة مع «زينات» ومن قبلها علاقته بـ«بسيمة» قال له: "لا تلمني، ماذا أفعل وأنا في الثلاثين بلا عمل وبلا أمل".

لقد اهتم الكاتب بمحاولة إزالة الوهم من خلال اللجوء إلى كشف بواطن النفوس، هذا الأصل الدرامي للذات هو الدافع إلى تلك الغربة، فانفصال الأنا من جهة أهوائها ونقلها إلى منطق الإحالات، يسهل التحكم في ذهنيتها ونفسيتها؛ فرحلة البحث كانت لتعويض فرض الوصاية الذي يمثل للبطل عقابًا اجتماعيًا، تم التعبير عنها من خلال الضجيج الأخلاقي، لذلك كان (التمرد) هو الفعل الدال على فك وصاية الأخ الأكبر، وكانت المحاولات المستمرة لتجاوز تلك الفجوة بين (الأنا) و(الجماعة السيكولوجية)؛ فنحن اتخذت في الرواية دلالة اختزال دور الأم في وظيفة العطاء «جلست أمي بجوار غريب، وضعت أمامه ذكر

البط، وهـي تقسم بأن يأكله بأكمـله» وكلها إسقاطات تدل على علاقة متوترة بين المصالحة والصراع؛ فالرواية تمـثل تجسـيدًا لهموم جيل يجاهد في أن يشق لنفسه طريقه وهويته الخاصة، والكاتب رصد لنا واقع الإنسان العاجز تحت وطـأة الفقـر والفساد الاجتماعي من خلال (الاسترجاع) كآلية لجأ إليها الأخ الأكبر، كأن (أزمة الهوية) هي المحور الأساسي في الرواية؛ فنجد أن البطل ينتمي انتماء ناقصًا للمجتمع، اتضح ذلك في الختام وتساؤل المطـرب في فيلم السهرة بعد عودته: «يعني إيه كلمة وطن؟» الاغتراب إذن يعد معادلا للشخصـية الرئيسـية، والخطوط الواصلة بين (أزمة هويـة) البطل والأزمات الاجتماعية لباقي الشخصيات تعكس لنا سذاجة الأحلام التي تتكسر على عتبات الواقع، وقدرية الصراع بين الرغبة كقوة نفسية تولد من غياب إشباع حاجة، والاغتراب الذي تجلى في ثنائية الحضور/الغياب، لذلك يمكننا القول إننا أمام رواية حياة المهمشين، والذات القلقة التي لا تسعى إلى التعويض.

حالة شجن رواية البحث عن الوطن

د. ممدوح فرّاج النّابي

عرفت الكاتب أحمد رجب شلتوت قارئًا نهمًّا للكتب، يُقدِّمُ مقاربات وقراءات نقدية، غاية في الجدية والتفاني، كما أنها قراءات واعية، سواء باختياراته أو بأسلوبه البديع، الذي يوجز في عبارة سلسلة محكمة الصياغة بعيدة عن الغموض والمصطلحات، ما يحتاج إلى عبارات مُسهبة لشرحه. أصدر هذه المقاربات في كتابين هما: "فن البحث عن الإنسان: قراءات في الرواية العربية"، و"ربيع البنفسج: قراءات في الرواية".

وفي مُجْمل قراءاته يبحث شلتوت عن المعنى والقيمة في الرواية، فالرواية كما يقول في أحد كتبه، وإن كانت "تمنح الإنسان التسليّة والمتعة، فإنها في الوقت ذاته وسيلة لتدبّر العالم والتفكّر في ماهيته" ويزيد بأن الرواية هي فن البحث عن الإنسان.

هذا الوعى بمفهوم الرواية وعوالمها نراه واضحًا في روايته القصيرة "حالة شجن"، وهي العمل الفائز بجائزة إحسان عبد القدوس، وقد صدرت مؤخرًا عن الدار الثقافية للنشر والتوزيع – تونس. تنشغل الرواية بالإنسان وهموم الإنسان؛ إنسان مِلح الأرض، الذي يُعافر في الحياة من أجل أن يحيا فقط، ولكن تأبى عليه الحياة إلا أن تنغصه وتكدر صفوه،

ومع هذا يقاومها بكل ما أوتي من قوة كي يحياها.

في مستهل كتابه "الرواية فن البحث عن الإنسان" يضع شلتوت مقتطفًا للروائية كوليت تقول فيه: "أضع في رواياتي كل الحب الذي لم أستشعره والذي أتوق إليه". في الحقيقة لم يختلف أحمد رجب شلتوت عن كوليت، فحمّل روايته حبّ وطنه، وتمسُّكه به حتى مع قسوته على أبطال روايته. فالوطن ليس مجرد كلمة تردد بمناسبة أو غير مناسبة، أو حدودًا أو مكانًا، وإنما هو حالة عشق.

البحث عن وطن

تطرح الرواية إشكالية مهمّة من حيث بنائها، فعدد صفحاتها لا يتجاوز ١٠٠ صفحة من القطع الصغير، وهو ما يضعها في مواجهة مع "الرواية البدينة" بتعبير سعيد يقطين، فالرواية هنا تتناسب مع إيقاع العصر اللاهث. الرواية محكمة، خالية من الرطانة، فمعظم الحوارات موجزة، والأفكار التي تطرحها محددة، منذ عنوانها الرئيسي الذي يتناص مع أغنية شهيرة، جاءت في نهاية فيلم "أمريكا شيكابيكا" لخيري بشارة، الذي أُنتج في عام ١٩٩٣، ذروة الحلم الأمريكي، الأغنية تتساءل: يعني إيه كلمة وطن؟ بعدما ضاق الحال بمجموعة من الشباب، تتعثر أحلامهم بعتبة الواقع، فيقررون السفر من أجل الثراء السريع، لكن وَقَعَ حظهم التعس مع نصّاب، سرق أموالهم وأحلامهم وتركهم في إحدى غابات رومانيا.

الرواية تتقاطع بعنوانها مع الفيلم وأيضًا مع موضوعه، فالوطن هو الهم الأكبر هنا، وهذا ظاهر منذ الإهداء الشارح: "إلى فجر أثق في طلوعه

رغم سطوة العتمة"، وأيضًا بالتصدير الذي اقتبسه المؤلف من قصيدة للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، التي يتعجّب فيها من حاله، فهو لا يراه إلا "بلدًا غريبًا / لم أشاهد مثله منفى / ولا وطنًا" وإن كان حجازي لا يعلم "كيف اتخذته أمّة سكنًا" فالحال يقول إن شخصيات الرواية ارتضته وطنًا، وتآلفت معه حتى مع قسوة السُّلْطة تارة، وضيق العيش تارة ثانية، صار هو الملاذ؛ ومع هذا صار موضع تساؤلات مؤلمة، بعدما بدت وجوه الناس فيه كُلها مهمومة يعلوها الصدأ.

النوفيلا تدور حول شخصية غريب الجامعي، المثقف الذي أنهى دراسته ولم يوفّق في العثور على فرصة عمل تليق بما درسه، فاُضَطر إلى السّفر إلى دول الخليج، لكن نفسه الحُرّة أبتْ عليه أن يذعنَ لنظام الكفيل، فيُقرّر العودة، ومع العودة لم يجدِ الدنيا تفتح لها ذراعيها، فَقَبِلَ العمل كبائع متجوّل، يطوف ببضاعته البسيطة الأسواق المختلفة، وهو ما كان يُعرّضه لمضايقات رجال الشرطة والبلدية. يصيبه سَهْمُ الحبّ، بعدما رأى فتاة في إحدى الأسواق، لكن كانت ظروف الفقر حائلاً في إتمام الزواج. ومع هذه الظروف المُحْبِطة إلّا أنّ البطل لم ييأس، فهو إشكالي مُتسلِّح بثقافة واسعة، كانت له عضدًا في أزماته جميعًا، فلم تفتر همته، أو تخمد عزيمته، بل ظل يقاوم ويعمل في كافة الظروف.

قهر السُّلطة

تكشف الرواية الوجه الآخر من استبدادية السلطة، وقهرها لكل من لا ذراع له. فعوامل القهر لا تتوقف عند الظروف الاجتماعية القاهِرة التي

تجعل من طالب جامعي يجوب الأسواق ببضاعة بسيطة، ويقف في طابور عريض من العاطلين، وهو ما يكشف عن موطن خلل بين مُخرجات التعليم وحاجة سوق العمل لهذه المخرجات، وكأنهم فائض بلا قيمة. وهو ما دفع بالكثيرين إلى رحلة اغتراب حقيقي عن الوطن بالهجرة؛ بحثًا عن مورد رزق في بلاد الخليج، أو حسب ما صوّر الفيلم إلى بلاد الأحلام، وهو ما أوقع الكثيرين في عمليات نصب، وقهر فاقمت من القهر المعنوي أو الاغتراب الذي يعانونه داخل وطنهم، الذي لم يكن يومًا ذلك الوطن الحسن، الذي تتشدق به الأغاني والأناشيد في الاحتفالات الوطنية.

الرواية القصيرة تشير إلى تحالف المال والسلطة، وهو ما كان بمثابة القشة التي قسمت ظهر السلطة أمام موجات الربيع العربي في ٢٥ يناير ٢٠١١، فعضو البرلمان الذي لا يعرف أحد كيف صار من الوجهاء وعُلية القوم في مدّة لم تتجاوز العشر سنوات، وصار يتمتع بالحصانة البرلمانية، والنفوذ بهذه السهولة، فما أن يلجأ إليه أهل غريب، بعدما دلّهم صول (رتبة في النظام الأمني – الشرطي والعسكري – المصري) أخذ رشوة عن وجود ابنهم داخل الحجز، وأنّ أقصر طريق للضابط الذي رفض خروجه معهم بضمانهم هو المعلّم عاشور عضو مجلس الشعب "فالضابط لا يرد له كلمة، وهو الوحيد القادر على إخراج غريب من الحجز"، وبالفعل يأتي الرجل وإن كان يعاتبهم في الطريق على عدم منحه أصواتهم في انتخابات الدورة الماضية، وبالفعل يدخل ويستقبل استقبالاً يكشف هذا التواطؤ بين رجال السلطة والمال، وتكون النتيجة أنه يخرج معهم. فالرشوة والوساطة هما السبيل للحصول على الحق.

يكشف غريب بعد خروجه معهم عن حالات مِن القهر التي مارستها أجهزة السُّلطة الإيديولوجيّة – بتعبير ألتوسير – على شريحة من المجتمع هي في الأصل مقهورة، فالرجل الذي قُبض عليه كان يحمل كيسًا أسود، ومع اكتشاف أن بداخل الكيس مجرد قمر الدين وليس شيئًا آخر، إلا أنهم استمروا في قهره، بأخذ ما معه، وهو ما جعله يدخل في أزمة مَرضية، عندئذ اضطر ضابط الشرطة إلى إطلاق سراحه؛ خشية أن يموت. كما أن سبب القبض عليهم جميعًا، في حدّ ذاته دال على نوع من الممارسات العشوائية والرغبة في القهر وإذلال المواطن، علاوة على ما يُعانيه. وهي الأسباب التي اجتمعت معًا وكانت شرارة الثورة في يناير.

تعكس الرواية هيمنة الفكر الخرافي السّائد في هذه البيئات، في دلالة قوية على غياب جهود الدولة التنموية من أجل التوعية. فالعائلة تؤمن بالغيبيات، وتُولي للفكر التحتي أهميةً كبيرة، على نحو ما حدث في تسمية واختيار الأبناء، بداية من اختيار اسم مُحَمَّد، ثم اختيار مُحَمَّد لابنه الجديد. وأيضًا في مظاهر التبرُّك بالأولياء، وإسناد الأمر لهم بعد أن أعيتهم الحيلة عن الحل.

كما تشير الرواية بطرف خفي إلى فساد المحليات، عبر شخصية فؤاد الذي يعمل في الإدارة الهندسيّة مسؤولاً عن استخراج تراخيص المباني، وكأن الرواية تقول إن الفساد سلسلة مترابطة ممتدة، وإن كانت الرواية أرجعت انتشاره إلى الظروف الاقتصادية المتدنيّة، والحيل التي يلجأ إليها البعض، حتى ولو كانت غير مشروعة، لمقاومة أزماتها.

يأخذ تبويب النوفيلا شكلاً جديدًا غير مألوف في الرواية العربية، فالفصول غير معنونة، أو مرتبة بأرقام، وإنما مرتبة بالحروف الهجائية تصاعديًّا بدءًا من حرف الألف وصولاً إلى حرف الياء. وتتميّز الوحدات السّرديّة بالقصر الشديد، حتى في بعضها لا يتجاوز الصفحة الواحدة أو حوار مقتضب كما في الوحدتين (م، و). السرد يسير تصاعديا حيث لا وجود للزمن الماضي إلّا في حدود ضيقة، ومن ثمّ فقارئ النص يلهث لمتابعة الوحدات، التي تتميّز بالاختزال الشديد، والتكثيف، عبر لغة واضحة سهلة، مجردة من أيّة زيادات، أو حشو لا معنى له. كما أنّ الأحداث نفسها متلاحقة، إضافة إلى عدم وجود تفريعات تُشتت القارئ، بل ثمة حكاية واحدة، وبؤرة السرد مركزة عليه.

جوانب كثيرة من الشخصية الرئيسيّة تتكشّف مع تنامي السّرد، فعلاقته بوسيمة زوجة صديقه فؤاد تظهر مع حالة الحزن التي أبدتها وسيمة عندما علمت بغيابه، ومن ثم يفرد الراوي وحدة سردية ليكشف عن هذه العلاقة وبداياتها إلى تطوراتها بنزوة عابرة حدثت بعد إصابة زوجها في إحدى المباريات، مما اضطره للبقاء في المستشفى، ومع إصرارها على البقاء بجواره إلا أنه يرفض ويطلب من صديقه أن يوصلها إلى بيتها في طريقه. هذه الحكاية على الرغم من أن حذفها لن يصيب بناء الحكاية بشيء، إلا أن أهميتها الحقيقية في الرسالة التي حملتها، التي تتمثل في دق ناقوس الخطر، على مخاطر العلاقات الاجتماعيّة المفتوحة، وهو باب تنسرب منه الكثير من العلاقات غير المشروعة. وبذلك يكون هذا الجزء في السرد أشبه بما يسميه رولان بارت "مفعول الواقع"، فهذا حدث فرعي إلا أنه

يستحوذ على الاهتمام، وفي نفس الوقت يكشف عن خلل في العلاقات الاجتماعية.

الرواية بصغر حجمها، وحدثها المُحدّد وشخصياتها القليلة، وحواراتها الثرية، تطرقتْ لموضوعات اجتماعيّة، وسياسيّة واقتصادية مهمة، وكأنها أشبه بتشخيص حالة وطن انتهى أفراده إلى الشعور بالشجن والتأسي لحاله.

خفة الحكاية وبلاغة العبث في "حالة شجن"

د. محمد المسعودي

إن من يقرأ الرواية القصيرة (نوفيلا) "حالة شجن" للكاتب المبدع أحمد رجب شلتوت ستلفت نظره سمة جوهرية في بناء هذا النص السردي القصير، وهي سمة "خفة الحكاية"، والمراد بالخفة هنا مُضي السرد في إيقاع سريع وتدفق ممتع وتشكل عوالم متخيلة طريفة، على الرغم من أن الرواية تتمحور حول حدث فظ ثقيل، وتُصور واقعا دراميا كالحا في سياق أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية مختلة، تعمل الرواية على كشف سوادها. ولعل منطق العبث، والأفق السريالي القائم على المفارقة. ولعل تشعب الحكاية المحورية وانبثاق محكيات صغرى من صلبها، مكنا الروائي من جعل نصه يتميز بالحيوية، والقدرة على شد المتلقي إلى عوالمه المتخيلة، وإلى شخصياته الروائية وهي تخوض تجربتها وتبحث عن أفق ممكن لحياة سوية. فأين تتمثل "خفة الحكاية" في هذا النص؟ وكيف تُسهم بلاغة العبث بسماتها الفنية في تشكيل هذه الرواية؟

يضعنا السارد منذ بداية النص في أتون تجربة الواقع، ويطلعنا على معضلة شخصياته وهمومها وما يثير شجونها. وهو بذلك يصنع أفقا لحكاية

يمكن أن تتميز بالمأساوية والعمق الدرامي، غير أن هذا الأفق، وعلى الرغم من الشجن الذي يرتبط به يخلق هامشا كبيرا للمفارقة والسخرية. ومن جوهر المفارقة، واستنادا إلى السخرية نجد أنفسنا أمام وقائع عبثية، وأمام حالة سريالية تحياها شخصيات هذه الرواية مما يميز النص بخفة وحيوية كبيرين. وبذلك تمكن السارد من تحويل حالة الشجن إلى حالة هزلية ترمي إلى شجب ما يجري في الواقع وتفكيك منطقه العبثي اللامعقول.

تحكي الرواية عن أسرة تعيش أوضاع مضطربة في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية مختلة. وهكذا تُفتتح الرواية بحوار يجري بين الأم والجدة وبين الابن السارد حول تمكين الأخوات من مصاريف مواسم معينة، فكل من الرجال الثلاثة ينبغي أن يتكلف بمواسم أخت واحدة من الأخوات الثلاث المتزوجات، لكن جمالا ومُحمَّدا يجادلان الأم والجدة مؤكدين أن كل الشهور العربية مواسم، وأن متطلبات هذه المواسم لا تكاد تنتهي. وفي ختام الحوار تعلن الأم أن مُحمَّدا والابن الأكبر جمال (السارد) "بتوع نسوانهم"، وأن ابنها الشهم هو الأصغر سنا "غريب" الغائب الذي لم يعد بعد من أحد الأسواق التي يتردد عليها باعتباره بائعا جوالا وهكذا تنتقل الرواية من فضاء البيت والحوار الدائر بين مُحمَّد وجمال (السارد) وأمهما وجدتهما، لتدخلنا إلى عوالم البحث عن "غريب" المختفي الذي خرج منذ الفجر ولم يعد. وهو الرجل المضبوط المواعيد بحيث يخرج عند الفجر مصحوبا بدعوات الأم والجدة، ويعود مع العصر، ولم يحدث أن عاد بعد غروب الشمس.

كان اليوم أربعاء، وأسواق الأربعاء متناثرة قبلي وبحري، وغريب لم

يخبر أحدا من أسرته أو أصدقائه بوجهته. ومن ثم تبدأ رحلة البحث من دون وجهة محددة ولا تصور مضبوط. وهذه أولى علامات الأفق العبثي الذي ستنبني عليه أحداث الرواية، وتشكل أفقها السريالي القائم على المفارقة، والمتسم بالسخرية. وسيتبلور هذا البعد في الوقائع التي تحكيها الرواية وتُصور رحلة السارد (جمال) رفقة سائق التاكسي (عنتر) وهما يتنقلان بين أقسام البوليس ومراكز الشرطة وينظران إلى جثة ميت في مشرحة أحد المستشفيات. وقد كشفت هذه الرحلة عن زيف بعض الشخصيات ونفاقها، وصدق بعضها الآخر وإخلاصها.

ومن خلال تجلية المتناقضات تصنع الرواية مفارقاتها وتبعث مسحة من السخرية تصل حد الفكاهة والكوميديا السوداء التي يرام بها الاحتجاج والرفض.

يقول السارد: "في كل مكان نرى الضابط الذي يشرب الشاي بالحليب في قسم الجيزة. كان فقط يغير لون عينيه ومشروبه. يشرب القهوة أو الشاي بدون حليب لكنه هو نفسه. قد تنطفئ السيجارة بين أصابعه أو تشتعل لكنه هو نفسه".

بهذه الشاكلة يقدم السارد صورة كاريكاتورية عن ضباط أقسام الشرطة الذين يتشابهون في السمات والتصرفات إلى درجة تبعث السخرية وتكشف عن مفارقة بين ما يروج من ادعاء خدمة المواطن، وكيفية التعامل الفعلي مع هذا المواطن. فالسارد جمال قوبل من ضابط قسم الجيزة برفض النظر في لائحة المساجين بقسمه، ونفس الأمر حصل في أقسام ومراكز

أخرى القليوبية والقناطر وسوق الباجور وإمبابة وغيرها من الأماكن.

وبذلك تكشف الرواية عن عبث في الممارسة الإدارية، يزكي عبث الوضع الذي تجد الأسرة نفسها خاضعة إليه في ظل ظروف اقتصادية وأوضاع اجتماعية مضطربة، وبذلك يصير هذا الوضع السريالي وضعا عاما وحالة يومية تعرفها كل الأماكن والفضاءات التي تمر بها رحلة السارد خلال بحثه عن أخيه.

ففي المستشفى سيقف السارد عند حدث البحث عن ملف تسمم تلاميذ تم تذكره بعد مرور شهرين على وقوع الكارثة، ولم يتم الاهتمام بها حتى اللحظة. وبهذه الكيفية نقف عند مظهر آخر من مظاهر العبث في الحياة ليشمل أوجها عدة لمتاهة السارد، وهو يكتشف اضطراب الواقع من حوله. وتتمثل قمة الدرامية الممتزجة بالمفارقة العبثية لحظة الدخول إلى المشرحة للتعرف على جثة ضحية حسبها عنتر والسارد (جمال) بأنها جثة أخيه غريب، يصور السارد هذا المشهد بقوله:

"ولما أرانا بدوى الجثة المنكفئة على وجهها قال عنتر:

– هو .. هو غريب .

صرخت ملتاعاً. قفزت معانقاً الجثة. انكفأت عليها. واصلت الصراخ. صرختي كأنها حُملت بكل عذابات غريب و إحباطاته ، فخرجت وكأنها شوك ينزع من أحشائي. يُمزقها.

ولما حاولت تقبيل الوجه شعرت بالشارب الكث، انتبهت، أخي غريب لم يكن ذا شارب. أدرت الوجه. لم يكن هو.

وحينما ارتطمت بأرض المستشفى سمعت صوتي يهتف:

– ليس هو .. ليس هو ".

عبر هذه المفارقات يتمكن السارد من شجب ما يجري وتعرية ما يحمله المجتمع من أدواء وفضح ما يعج به من اختلالات. وبهذه الكيفية يقف هذا المشهد العبثي على فداحة ما يحدث في ظروف غير سوية. وعن طريق سوء الفهم، واضطراب المشاعر، واختلاط الأوضاع، وغياب المنطق تتولد الحالة السريالية التي تطفو على سطح الرواية، وتُحول ثقل ما تقف عنده إلى خفة عبر محكياتها الطريفة.

ومن هنا تتولد "خفة الحكاية" التي تنسج عوالمها عبر نصوص قصصية عدة تتعلق بالسارد (جمال) وأسرته، وفي أثناء بحثه عن أخيه الضائع، من جهة، وترتبط، من جهة أخرى بشخصيات أخرى تنبثق من مسار الحكاية الكبرى لتشكل موتيفات جديدة تزكي البناء الفني للنص وتمنح متخيله تنويعات تخرج به من ثقل ما يصوره إلى آفاق أخرى تتسم بالفكاهة والسخرية والمفارقة لتكشف كنه العبث المستشري في حياتنا المعاصرة.

وهكذا يجد القارئ نفسه أمام قصص صبية بجلابيب بيضاء حاول ضابط إلصاق تهمة الإرهاب بهم، بينما دافع عنهم ضابط مباحث باعتبارهم مسالمين من جماعة "التبليغ والدعوة" ولا خوف منهم، لكن ضابط القسم أصر على كتابة محضر لهم والاحتفاظ بهم يوم أو يومان "للتسلية". كما تنبثق حكاية هاني مع جمال السارد، وحكاية خطوبة "غريب"، وحكاية مرعي صديق جمال السارد، وحكاية فؤاد وغريب

وبسيمة، وحكاية غريب وزينات.. وغيرها من المحكيات الصغرى التي أسهمت في منح النص حيوية وحركية منحته القدرة على التشويق وإمتاع المتلقي، وبالتالي تنويع الإيقاع السردي للحكاية الإطار: حكاية البحث عن "غريب" في مساربها العبثية السريالية.

انطلاقا من كل ما سبق نتبين أن الرواية القصيرة للمبدع أحمد رجب شلتوت اشتغلت بالسخرية والمفارقة والكوميديا السوداء لتصوير واقع كالح وأوضاع مختلة تصل حد السريالية. وقد استندت في تشكيل عوالمها إلى بلاغة العبث، وهي بلاغة توظف إمكانات فنية متنوعة من بينها تشخيص النقائض وكشف المفارقات التي تعج بها الوقائع البسيطة التي يمر بها الناس. وقد استطاع الكاتب عبر حكايته الخفيفة الظل وبلاغة العبث تجلية الواقع الثقيل في مختلف تجلياته، وبهذه الفنية المتقنة تمكن من تشويق المتلقي وشده إلى "حالة شجن" تتحول في أكثر من سياق إلى صور سريالية ومواقف عبثية بينة.

صدر للكاتب

-السعار والشذى مجموعة قصصية – ١٩٩٦

– العائد إلى فرحانة مجموعة قصصية – وكالة الصحافة العربية ١٩٩٧

– دم العصفور مجموعة قصصية الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٢

-زوال نوفيلا القاهرة ٢٠٠٤

– العش للعصافير مجموعة قصصية للأطفال كتب عربية ٢٠٠٥

-حالة شجن نوفيلا الدار الثقافية تونس ٢٠١٩

-فن البحث عن الإنسان.. قراءات في الرواية.. وكالة الصحافة العربية ناشرون ٢٠١٩

-رشفات من النهر ... قراءات وكالة الصحافة العربية/ ناشرون ٢٠١٩

-ربيع البنفسج .. قراءات وكالة الصحافة العربية/ ناشرون ٢٠٢٠

– الظنون والرؤى .. قصص قصيرة جدا ، القاهرة ٢٠٢٠

-فاتحة لصاحب المقام، قصص قصيرة / الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢١

-العزلة ليست هي الوحدة وكالة الصحافة العربية/ ناشرون ٢٠٢١

– حياة بين الرفوف (قراءات) وكالة الصحافة العربية/ ناشرون ٢٠٢٢

-طوق الحمامة.. دراسة ومختارات ، وكالة الصحافة العربية/ ناشرون ٢٠٢٢

– والرواية غواية، قراءات، وكالة الصحافة العربية/ ناشرون ٢٠٢٣

الفهرس